

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين

مقياس التفسير والحديث الموضوعي

مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الثالثة دعوة وثقافة اسلامية

السداسي السادس

من انجاز الدكتور: رياض عميراي

السنة الدراسية 2023/2022م

يعد منهج التفسير الموضوعي من المناهج الحديثة التي تعنى بتفسير القرآن الكريم ويمكن تعميم هذا المنهج على باقي الدراسات الاسلامية الأخرى كالحديث النبوي والفقه والعقيدة وربما إلى غيرها كباقي العلوم الانسانية، وقد اختلف العلماء في كون نشأة هذا المنهج قديما أم حديثا، والذي كانت له ارهاصات منذ عصر النبوة وعصر الصحابة والتابعين الى عصر التدوين الى أن بلغ أشده في العصور المتأخرة، ولكنه ما زال لم يبلغ ذروته في الضبط والتحرير إذا ما قورن بعلوم أخرى كأصول الفقه واللغة وعلم العقيدة وغيرها.

وقد أسهم بعض العلماء في الكتابة في هذا الموضوع من ناحية التقعيد والتأصيل والنشأة و ولكنهم لم يتفوقوا على بعض المسائل فيه كأنواعه وأقسامه وخطواته وبعض شروطه؛ حيث أوصلهم اجتهادهم على العموم لوضع ثلاثة أنواع من التفسير الموضوعي وهي:

التفسير الموضوعي التجميعي، والتفسير الموضوعي الكشفي (الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية)، والتفسير الموضوعي للمصطلح القرآني، حيث يمتاز كل نوع بخطوات تختلف عن النوع الآخر لها تفاصيل عند العلماء متنوعة بين مضيق فيها وموسع.

وأما تطبيق هذا المنهج في الحديث النبوي فله حالتين فقط، وهي الحديث الموضوعي العام، والحديث الموضوعي الخاص.

وسأعرض في هذا البحث المادة العلمية المقررة حسب عرض تكوين السنة الجارية، حسب البرنامج المسطر من طرف الوزارة.

القسم النظري

حول منهج التفسير والحديث الموضوعي

المحاضرة الأولى

مقدمات ومفاهيم حول منهج التفسير الموضوعي

الدرس الأول

✓ تعريف التفسير الموضوعي.

✓ أنواع التفسير الموضوعي وأهم خطوات كل نوع.

✓ أهمية التفسير الموضوعي.

✓ قواعد التفسير الموضوعي وضوابطه.

✓ تعريف التفسير الموضوعي:

أولاً: تعريف التفسير

في اللغة: التفسير في اللغة هو تفعيل من الفسّر؛ الذي هو الكشف والبيان، وفسّر الشيء يفسره بالكسر، ويفسره بالضم فسراً، يعني: أبانه، والتفسير كشفُ المراد عن اللفظ المبهم¹، وكل شيء يُعرفُ به تفسير الشيء ومعناه، فهو تفسرته، وقول الله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾²، وقال بعضهم: التفسير: «كشف المراد عن اللفظ المشكل»³، وفسّر وسفّر لغة واحدة، أي اشتقاقهما واحد، ومعناها الكشف، قال الجوهري: «... وسفّرت المرأة: كشفت عن وجهها، فهي سافرة، ومسافرٌ الوجه: ما يظهر منه... وأسفر الصبح، أي أضاء، وفي الحديث: أسفروا بالفجر، فإنه أعظم للأجر⁴.. وأسفر وجهه حسناً، أي أشرق»⁵.

وقال الزركشي في البرهان: «والتفسير هو الكشف أيضاً، فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به، ويُقال: فسّر الشيء أفسره تفسيرا، وفسرته أفسرته فسراً، والمزيد من الفعلين أكثر في الاستعمال، وقال آخرون هو مقلوب من سفر ومعناه أيضاً الكشف، يقال سفرت المرأة سفورا إذا ألفت خمارها عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح أضاء»⁶. وجميعهم متفقون على أن أصل التفسير الكشف والبيان.

في الاصطلاح: لقد تفاوتت التعاريف الاصطلاحية لهذا اللفظ بسبب اختلاف العلماء في تحديد ما يندرج تحته من مدلول ومعنى، ومقصد، فبعضهم يقول: هو علم يُعرف به نزول الآيات، وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكّيها، ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وأمثالها وغيرها⁷

1 - لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2003م/1424هـ، ج6، ص: 134.

2 - سورة الفرقان: آية 33.

3 - معجم تذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: د. رياض قاسم، دار المعرفة، الطبعة: 1، سنة: (1422هـ/2001م)، بيروت، لبنان. المجلد الثالث، ص: 2787.

4 - حديث رواه الترميذي، في سننه، باب: ما جاء في الإسفار، ج1، ص: 263، ورواه النسائي في باب: الإسفار بالفجر، ج2، ص: 277، ورواه أحمد في المسند من طريق رافع بن خديج، ج35، ص: 150/48، ص: 157/48، ص: 172. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ج1، ص: 345، 355، 457، 478. ورواه الطبراني في المعجم: ج9/4/17، ص: 150، 13، 460. ورواه البيهقي في الآثار، باب: الصبح، ج2، ص: 325.

5 - تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: 4، 1426هـ/2005م، بيروت لبنان، الجزء: 2، ص: 589.

6 - البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، (1376 هـ/1957م)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ج1، ص: 147.

7 - كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي الفاروقي التهانوي، تحقيق: لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية، العامة، مكتبة النهضة العربية، الطبعة: 1، 1382هـ/1963م، ص: 33.

وقد جمع هذا التعريف كل ما يتعلق بعلوم القرآن، وتناول مختلف الدراسات القرآنية.

وهناك من يقول: «هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمتات لذلك»¹.

وأما الزركشي فيعرّف التفسير بقوله: «التفسير: علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»²، وهو الكشف عن مراد الله بقدر الطاقة البشرية.

وهذا الأخير تعريف عام، يفهم منه أن التفسير هو الجهد الذي يبذله المفسر، للكشف عن مراد الله تعالى من خلال خطاب الله المتعلق بأفعال العباد، بقدر استطاعته، ويقدر ما آتاه الله من علم، وبما فتح الله به عليه من فهم.

ثانيا: الموضوع

في اللغة: فهو في الأصل مصدر ميمي لفعل وضع، يقال في اللغة وضعه يضعه وضعا وموضعا وموضوعا، بمعنى حطّه، ويقال ذلك في الحمل والحمل - بفتح وكسر الحاء - فيقال: وضعت الحمل فهو موضوع، قال تعالى: ﴿وَأَكْوَافٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾³ وقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾⁴، فهذا الوضع عبارة عن الإيجاد والخلق. ووضع البيت: بناؤه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾⁵ ووضع الدابة، أسرع، وتضع في سيرها: تُسرع، ودابة حسنة الموضوع سريعة، وأوضعها: حملتها على الإسراع⁶، والإبل ألزمتها المرعى فهي موضوعة⁷.

والموضوع أيضا من الوضع؛ وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء أكان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان، تقول العرب: ناقة واضعة: إذا رعت الحمض حول الماء ولم تبرح، وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي أراد⁸.

وهذه لفظة غنية المعاني، حقيقية ومجازية، وهي لا تستعمل في الاستعمال الذي نقصده لأنها مصطلح حديث

1 - البحر المحيط، علي بن يوسف أبي حيان الأندلسي، ج1، ص: 14.

2 - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، (مصدر سابق)، ج1، ص: 13.

3- سورة: الغاشية، الآية: 14.

4- سورة: الرحمن، الآية: 10.

5- سورة: آل عمران، الآية: 96.

6- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، (دون تاريخ)، بيروت. ص: 526.

7- التفسير الموضوعي، عبد الجليل، (مصدر سابق)، ص: 33.

8 - مقدمة في التفسير الموضوعي، محمد بن عبدالعزيز الحضيبي، كلية المعلمين قسم الدراسات القرآنية، ص: 20.

شاع حتى أصبح حقيقة عرفية على القضية العلمية.

في الاصطلاح: جاء في المعجم الوسيط: «الموضوع هو المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه»¹، وهو محل العرض المختص به، وموضوع كل علم: ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية، كبदन الإنسان لعلم الطب، وكالكلمات لعلم النحو².

ويعرفه آخرون بأنه قضية، أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة، في العقيدة أو السلوك الاجتماعي، أو مظهرًا من مظاهر الكون، تعرّضت لها آيات القرآن الكريم³، وإضافة (تفسير) إلى (موضوعي): صارت علما على هذا الفن، بعد أن رُكبت معها وصارت كلمة واحدة، كما هو الشأن في اسم (معد يكرب)، أو (حضر موت)، أو (سيبويه)، فتنوسيت تلك الإضافة مع مرور الزمن، وصارت كأنها كلمة واحدة لها معنًا خاصًا بها.

أما تعريف التفسير الموضوعي كمركب إضافي فهو: عبارة عن منهج جديد يُتناول به تفسير القرآن الكريم، بطريقة سهلة ميسورة تُخدم المقلين على كتاب الله، فتمكنهم من فهم القرآن الكريم فهما دقيقا كاملا، وهو «عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، مشتركة في الهدف، وترتيبها على حسب النزول - كلما أمكن ذلك - ثم تناوُلها بالشرح والتفصيل، وبيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، والدب⁴ عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شُبّه الضالين والملحدين من أعداء الدين»⁵، وقيل: هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر⁶.

وقيل: هو علم يبحث في قضايا القرآن المتحدة معنى وغاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع⁷، وكل هذه التعاريف متقاربة بعضها لبعض، إذ تصب في معنى واحد، فبعضهم عرّف التفسير الموضوعي باعتباره علما على فن مدون، وبعضهم عرفه على اعتبار أنه مركب وصفي، ولعل كل هذه التعاريف تحدم بعضها بعضا وتتم المعنى المطلوب.

✓ ألوان التفسير الموضوعي وخطوته:

من خلال استعراضنا لبعض ما أُلّف في هذا المنهج، ومن خلال ما نلاحظه في التفاسير القديمة والحديثة، وما كُتب في التنظير لهذا المنهج نستنتج ثلاثة أنواع من ألوان التفسير الموضوعي.

1- مجمع اللغة العربية، (مصدر سابق)، ج: 2، ص: 1052.

2- التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي، (مصدر سابق)، ص: 720.

3- مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، (مصدر سابق)، ص: 16.

4- تعني: الدفاع.

5- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، محمد يوسف القاسم، الطبعة الأولى، سنة: 1401هـ/1981م، القاهرة، القسم الأول، ص: 7.

6- مباحث في التفسير الموضوعي، (المصدر السابق)، ص: 16.

7- التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، أحمد رحمان، منشورات جامعة باتنة، ص: 42.

اللون الأول:

وهو ما يُعرف بالتفسير الموضوعي للفظ القرآنية، وطريقته أن يتتبع الباحث لفظة معينة من القرآن الكريم، كالعقيدة، أو الحب، أو الأمانة، أو الجهاد، أو النفاق...، فيجمع لها الآيات التي وردت فيها هذه اللفظة من القرآن الكريم كله، سواء بلفظها أو بمشتقاتها، ثم يعهد الباحث إلى تفسير هذه الآيات، مستنبطاً من خلالها دلالات تلك اللفظة، واشتقاقاتها من خلال استعمال القرآن لها، فتكتمل بذلك الصورة، حيث يُطلعنا ذلك على أساليب القرآن الكريم في تعامله مع الألفاظ، واستخدامها في الموضع الأليق بها، دون تقديم أو تأخير.

وهذا اللون من التفسير الموضوعي أشبه بما في بعض الدراسات السابقة، كالأشبه والنظائر، وغريب القرآن، وغيرها.

وقد أورد الدكتور مصطفى مسلم بعض النماذج من هذا اللون من التفسير، نكتفي بذكر أمودجا واحدا لإيفائه بالغرض، حيث جاء في كتابه: "مباحث في التفسير الموضوعي" تحت عنوان نموذج من كتاب: "إصلاح الوجوه والنظائر" للدامغاني، ما يلي: «قال الدامغاني تحت مادة: (خ ي ر)، (خير) على ثمانية أوجه:

- المال، الإيمان، الإسلام، التفضيل، العافية، الأجر، الطعام، الظفر والغنيمة.
- فمعنى المال جاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾¹.
 - ومعنى الإيمان جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾².
 - ومعنى الإسلام جاء في قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾³.
 - ومعنى أفضل جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾⁴.
 - ومعنى العافية جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَحِيرٌ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁵.
 - ومعنى الأجر في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾⁶.
 - ومعنى الطعام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾⁷.
 - ومعنى الظفر والغنيمة، جاء في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْضِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾⁷ «¹.

1 - سورة البقرة: 180

2 - سورة الأنفال: 23.

3 - سورة البقرة: 105.

4 - سورة المؤمنون: 118.

5 - سورة الأنعام: 17.

6 - سورة الحج: 36.

7 - سورة الأحزاب: 25.

وهذه الأمثلة التي سقناها من القرآن ليست وحدها التي جاء فيها الخير بهذه المعاني بل هناك آيات أخرى أعرضنا عن ذكرها لعدم التطويل.

ومن أهم خطواته:

- 1- اختيار اللفظ القرآني الذي نريد دراسته، على أن يكون قليل الدوران على ألسنة الناس.
- 2- الوقوف على الجذر الثلاثي للكلمة، والتبحر في الكشف عن الاشتقاقات القريبة والبعيدة للفظة المدروسة، ومحاولة الاحاطة بالتعريف اللغوي والاصطلاحي للكلمة.
- 3- جمع الآيات التي وردت فيها هذه اللفظة فقط ولكن بجميع اشتقاقاتها وتصريفاتها في الماضي والحاضر والمستقبل وفي صيغها المختلفة في الاسم والفعل والمصدر واسم الفعل والصفة... والجمع والمفرد والمؤنث والمذكر والنكرة والمعرفة...
- 4- الكشف عن مدلولات اللفظة وكيفية استعمال القرآن لها والسياقات التي وردت فيها.
- 5- تفسير الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ، وتحليلها والخروج بعد ذلك بمفهوم لهذه الكلمة القرآنية وضبط أوجه مدلولاتها في القرآن الكريم، ووضعها في السياق الصحيح لفهم آيات الكتاب.
- 6- إسقاط هذه المفاهيم على واقع الناس وربطها بالجوانب التربوية والاخلاقية والاقتصادية والاجتماعي.....

اللون الثاني:

ويسمى التفسير الموضوعي التجميعي، ويعرف أيضا باسم التفسير الموضوعي لموضوع قرآني، حيث يختار الباحث موضوعا له أبعاده الواقعية في الحياة أو العلم أو السلوك... مما يتعلق بأمور الناس، ويفيد البشر جميعا، وخاصة المسلمين في حياتهم، ويشكل منه موضوعا يدرسه على ضوء القرآن الكريم من خلال آياته، ويخرج بعد ذلك بخلاصة تساعد في فهم جوانب الموضوع، وتعطي حلولاً للمشاكل المطروحة.

وهذا اللون من هو الذي اشتهر بين أهل الاختصاص، وإذا ما أطلق اسم التفسير الموضوعي، فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه².

وفيه أن يقوم الباحث بجمع آيات تصب في موضوع واحد، ويقوم بتفسيرها على ضوء ما تسمح به ثقافته، ثم ينسق بين معاني هذه الآيات، ويقسمها إلى مقدمة، وصلب، وخاتمة، ويربط كل ذلك، بالواقع الذي انطلق منه، ليعود في الأخير إلى استخلاص قواعد وحلول شاملة للمشاكل المدروس.

وقد أُلّف في مثل هذا النوع العلماء السابقون، إذ يجمعون الآيات المشتركة في شيء واحد مثل الأمثال في القرآن، أو الآيات التي اشتملت على الأحكام، أو ما جاء في النسخ والمنسوخ، أو غير ذلك مما له رابط بعضه

1 - مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، ط2، 1997م/1418هـ، دمشق، ص: 24.

2 - المصدر نفسه: ص: 28.

بعض، ولكنهم أوردوها ليقفوا على ما فيها، فلم يربطوا بينها ليستخلصوا موضوعا واحدا بالصورة التي نعهدها اليوم في هذا المنهج، ولم يتجاوزوا الحديث عن مدلولات ومعاني تلك الآيات واستخلاص مسائل جزئية، فضلا عن تقسيمهم لتلك المجموعات من الآيات، لتشكّل مقدمة وصلب موضوع، وخاتمة، بل جمعت بطريق آخر ورتبت إما ترتيبا مصحفيا، أو بحسب المتقدم منها والمتأخر، لتخدم الغرض الذي جمعوا من أجله تلك الآيات.

ولعل كثيرا من المؤلفين في هذا العصر قد دأب على هذا الطريق، فكتبوا في هذا النوع، خاصة بعض الباحثين من طلاب في رسائلهم الجامعية، وهي مواضيع منتشرة في المجالات والدوريات، مثل "حقوق الإنسان في القرآن"، و"العرض في القرآن"... وغيرها، وقد خطا هذا النوع خطوات لا بأس بها، وهو في طريق النمو، والإزدهار.

ومن أهم خطواته:

1- اختيار العنوان موضوع البحث بدقة وعناية مما له علاقة بحياة الناس، وفي أي مجال من مجالات الحياة، له تعلق بوظيفة الانسان ككائن بشري وكمخلوق لله تعالى.

2- جمع الآيات القرآنية الدالة على الموضوع إن تصرّحا أو تلميحا، وذلك باستقراء القرآن الكريم كله.

3- النظر في مختلف هذه الآيات المستخلصة ذات الموضوع المشترك، واستخراج معانيها الظاهرة (أفكار) يمكن أن تكون -أي هذه المعاني- هي الوحدة الأساسية لبناء الخطة (خطة البحث)، تحت مباحث ومطالب.

3- تقسيم هذه الآيات حسب عناوين المباحث والمطالب في الخطة التي وضعت أساسا على حسب المعاني المستنبطة، وترتيبها حسب المكّي والمدني وترتيب النزول....

4- الشروع في تحليل وتفسير هذا الآيات مع أخذ بعين الاعتبار اللغة والقراءات والناسخ والمنسوخ.. ومحاولة ربط هذا الآيات ببعضها البعض.

5- استخراج الهدايات والاحكام والحكم وصياغتها في شكل قوانين ونظريات تساهم في وضع حلول للمشكلة المطروحة.

اللون الثالث:

وهو التفسير الموضوعي الكشفي، ويسمى أيضا التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، أو الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، والذي نتعرض له بالتفصيل في المبحث القادم، وهو أن يختار الباحث سورة من القرآن تكون مدار بحثه، ويخرج منها بدراسة موضوعية متكاملة، كما فعل باقر الصدر عندما تناول سورة البقرة، وسورة هود، ويونس، وسنذكر بعض من أُلّف في هذا النوع في الحديث عن الوحدة الموضوعية ونشأها.

وهذا اللون من التفسير الموضوعي لا يتجاوز السورة الواحدة من القرآن، وطريقته أن يستوعب الباحث الموضوع الرئيس للسورة، وكذا مواضيعها الجزئية، مستعينا في ذلك بعدة أمور، مثل ترتيب النزول، وأسبابه، وهل تلك الآيات مكية أو مدنية، مع دراسة لأسلوب القرآن في تناول ذلك الموضوع، مع التركيز على كشف ذلك

الرابط الذي يجمع تلك الموضوعات الجزئية، وإبراز علاقتها بالموضوع الرئيس للسورة، لتفسر تلك المجموعات وتلك المقاطع من الآيات بصورة عامة متكاملة، بعد تقسيمها وترتيبها بحسب ما يقتضيه الموضوع، على أساس أن يخرج المفسر بعد الدراسة بإحاطة وافية للموضوع، وإلمام تام بجوانبه، في شكل خلاصة يسهل فهمها، والأخذ بها.

وقد شح هذا اللون من التفسير في كتب القدماء، كما يجربنا بذلك الدكتور مصطفى مسلم فيقول: «ولم يظفر هذا اللون من التفسير الموضوعي بعناية القدماء، بل جاء في ثنايا تفاسيرهم الإشارة إلى بعض أهداف السور، وخاصة القصيرة منها، وكذلك التوخي لوجه المناسبة بين مقاطع بعض السور، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وما فعله البقاعي في "نظم الدرر"، وعبد الحميد الفراهي في كتابه: "نظام القرآن"¹.

وهناك نوع آخر من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم متكاملًا، حيث تتضافر جهود عدد من الطلبة للبحث في الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، وإخراجه في صورة واقعية إلى حيز الوجود، وهي فكرة طيبة تحتاج إلى من يتبناها، ويدعمها ويحوطها بالعناية، لتثمر وتزهر وتكون لبنة تضاف إلى هذا المجال، كما قال الأستاذ باقر الصدر في مقدمات التفسير.

ومن أهم خطواته:

-أولاً: الجانب النظري

1- اختيار السورة محل البحث.

2- بين يدي السورة وفيها: التعريف بالسورة، كاسمها وعدد آياتها، وترتيبها في المصحف، وكل ما تعلق بها من أسباب النزول وزمنه، وفضل السورة....

3- مناسبات السورة الخارجية: وجه ارتباط السورة مع السورة التي قبلها والتي تليها.

4- أغراض السورة ومقاصدها وارتباطها بمقاصد وأغراض السورة التي قبلها والسورة التي بعدها.

-ثانياً: الجانب التطبيقي:

1- تقسيم السورة إلى مواضيع جزئية ومحاور فرعية (يمكن أن يشمل الموضوع الفرعي عدة أغراض أو مقاصد)، أو إلى مقاطع ودروس على حد تعبير سيد قطب وحلقات.

2- محاولة الكشف عن المحور الأساسي للسورة، وذلك من خلال:

أ/ اسم السورة ب/ فضل السورة ج/ مطلع السورة د/ المواضيع الفرعية للسورة هـ/ خاتمة السورة.

3- مناسبات المواضيع الفرعية فيما بينها وكذا مناسباتها مع المحور الرئيس للسورة، مع ربط المطلع بالخاتمة أو ما يعرف بقلب العجز على الصدر.

¹ - مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، (مصدر سابق)، ص: 29.

4- الخروج بتصور عام للسورة مع مراعات السياقات التي جاءت في السورة وتناسبها مع أغراض السورة ومقاصدها، وكيف خدمت هذه المواضيع موضوع السورة الرئيس.

✓ أهمية التفسير الموضوعي:

أخذ التفسير في العصر الحديث اتجاهات متعددة ومناهج متنوعة، بعضها يساير ما كان عند القدامى ويعتبر امتدادا له، وبعضها لم يكن له عند القدامى سمات واضحة، وإنما هو لون تعروه جدة في إطاره، وبعض مضامينه، وإن كان لا يخلو من أثر يمكن نسبته إلى جهود القدماء، ولقد اجتهد المعاصرون في البحث عن طرق وسبل تيسر لهم فهم القرآن الكريم، وضوابط وقواعد جديدة تُمكن المفسر من خوض غمار هذا الكتاب العظيم، وهذا بسبب التقدم والتطور الذي عرفته البشرية.

يقول الدكتور محي الدين بلتاجي في هذا الشأن: «والواقع أن الحياة الانسانية قد تغيرت معالمها ومعارفها تغيرا كبيرا منذ بدأ التأليف في التفسير عند القدامى، بمساراتهم التي ارتضوها حتى هذا القرن الذي نعيشه، والذي تشكلت في مطلع حضارة مادية أظلت حياة الناس، تغلب عليها النظرة العلمية، وتوجه الكثير من اتجاهات الفكر فيها... ومما لا شك فيه أن كثيرا من القضايا التي عرض لها القدامى من المفسرين، لم تعد تساير العصر، لأنها ليست من معطياته الفكرية في شيء، ومن هنا اتجه الكثير من المحدثين إلى التفسير، وهم يحاولون الربط بين ما جدَّ في حياتهم من قضايا وبين كتابهم»¹

ويقول الدكتور يوسف القاسم: «مما لا شك فيه أن هذا النوع من تفسير القرآن الكريم نحن في أشد الحاجة إليه، وخصوصا في هذا العصر الذي تقدمت فيه العلوم والمعارف، وتغيرت العادات والتقاليد عما كانت عليه من قبل، وأصبحنا في حاجة ماسة إلى عرض أعمالنا على القرآن والسنة الشريفة وعمل السلف الصالح، فما وافق أخذنا به وما لا يوافق طرحناه وراء ظهورنا»².

وإن تقسيم القرآن إلى مواضيع معينة وتفسيرها، هي الطريقة المثلى في الكشف عن خبايا هذا الكتاب، من تشريعات، وقواعد، وسلوك حميد، وكل ما من شأنه يفيد الناس في حياتهم، وما يتعلق بسلوكهم، وهذا ما يشعرنا بما للقرآن من صلة وثيقة بنظامنا الديني، والاجتماعي، والأخلاقي.

كما أن أهمية هذا المنهج تكمن في التصدي لمبادئ الشيوعية والإلحاد وبعض المادية، خاصة وأنها تدعي إطلاق الحرية، وتتهم الآباء بالغفلة والرجعية، وذلك من خلال إبراز مواضيع القرآن الكريم بصورة علمية جديدة، وبشكل يخدم القضايا المعاصرة، ويطرح الموضوع من جوانبه المختلفة، لتكتمل الصورة، وتقوم الحجة، على كل من يدعي فهم الحياة وحقيقة الإنسان، ليزداد الذين آمنوا إيمانا، وليستيقن من كان في قلبه ريب.

كما تتجلى أهمية هذا المنهج في إبراز وجه من أوجه إعجاز هذا الكتاب المحكم المرتب ترتيبا يوحى بأنه من عند

1 - دراسات في التفسير وأصوله، محي الدين بلتاجي، دار الثقافة، الطبعة: 1، ص: 193 سنة: 1987م، بيروت.

2 - التفسير الموضوعي، يوسف القاسم (مصدر سابق)، ص: 10.

حكيم حميد، لا سيما إذا كانت أسباب النزول متعددة، وأزمة النزول متباعدة، حيث يظهر ذلك من خلال جمع الآيات، وصبها في موضوع واحد، كما هو الشأن في هذا المنهج من التفسير.

ويرى الأستاذ أحمد رحمانى أن أهمية التفسير الموضوعي تكمن في تحديده موضوع معين، وهو تنمة لرسالة الفقهاء¹.

ويمكن تلخيص أهمية هذا المنهج في الأمور التالية:

الأول: إبراز وجوه جديدة من إعجاز القرآن الكريم، فكلما جدت على الساحة أفكار جديدة -من مُعطيات التقدم الفكري والحضاري- وجدها المفسر جلية في آيات القرآن، لا لبس فيها ولا غموض، بعد تتبع مواطن ذكرها فيه، فيسجل عندها سبق القرآن إليها، ويدلل بذلك على كونه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه ودلائل إعجازه.

الثاني: التأكيد على أهمية تفسير القرآن بالقرآن، الذي هو أعلى، وأجل أنواع التفسير، إذ قد يوجد من لا يلجأ إلى القرآن عند إرادة إيضاحه وتفسيره لقصور فيه، أو تقصير منه، وبالتفسير الموضوعي ندرك أهمية هذا اللون من التفسير فتزداد عنايتنا به، وتتعاقد جهودنا لبيان، فنكفي بذلك الوقوف عند كثير من مشكل القرآن، أو مواطن الخلاف بين علماء الأمة في تفسير آياته، ونورد ما يوضح المراد ويشفي العليل ويروي الغليل بالقرآن نفسه.

الثالث: إن تجدد حاجة البشرية، وبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة لا يمكن تغطيتها ولا رؤية الحلول لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، إذ عندما نجابه بنظرة جديدة، أو علم مستحدث، فإننا لا نقدر على تحديد الموقف من هذا العلم، وتلك النظرية، وحل المشكلة القائمة، وبيان بطلان مذهب، إلا عن طريق تتبع آيات القرآن، ومحاولة استنباط ما يجب نحو كل أولئك.

وإن جمع أطراف موضوع ما من خلال نصوص القرآن والسنة، يمكن الباحث من القيام بدور اجتهادي للتوصل إلى تنظيم أصول لهذا الموضوع، وعلى ضوء هدايات القرآن ومقاصده نستطيع معالجة أي موضوع يجد على الساحة.

الرابع: إثراء المعلومات حول قضية معينة، فغالباً ما يُطرح موضوع أو قضية أو فكرة أو مشكلة للبحث، ويبقى أي من ذلك محتاجاً إلى إشباع، ومزيد من الدراسة، ويتم تحقيق ذلك من خلال التفسير الموضوعي بحيث تبين لدوي الشأن أدلة جديدة، ورؤى مستفيضة، وتفتيق لشيء من أبعاد القضية المطروحة.

الخامس: تأصيل الدراسات أو تصحيح مسارها: لقد نالت بعض علوم القرآن حظاً وافراً من البحث والدراسة، إلا أن هناك علوماً آخر برزت جديدة تحتاج إلى تأصيل بضبط مسارها حتى يؤمن عثارها مثل (الإعجاز العلمي في القرآن)، فقد كثر الكاتوبون حوله إلا أنه بحاجة ماسة إلى ضبط قواعده ليُنَجَّبَ الإفراط فيه أو التفريط، وهذا إنما يتم عبر دراسة موضوعية لآيات القرآن وهداياته في هذا المجال.

1 - التفسير الموضوعي، أحمد رحمانى، (مصدر سابق)، ص: 14.

وهناك علوم ودراسات قائمة منذ القدم لكن المسار الذي تنتهجه يحتاج إلى تصحيح وتعديل، وإعادة تقويم، كعلم التاريخ الذي أخذ منهجاً في سرد الوقائع والأحداث من غير تعرض لسنن الله في الكون والمجتمع، علماً بأن هذه السنن قد أبرزتها آيات القرآن خلال قصصه بشكل واضح، وهناك انحرافات ماثرة في كتب التاريخ تخالف ما نص عليه في القرآن الكريم، ولن يتم تعديلها وتقويم مثل هذه العلوم إلا بطريق استقصاء منهج القرآن في عرضها ودراساتها...¹.

✓ قواعد وضوابط التفسير الموضوعي:

لقد توسع المفسرون القدماء توسعاً كبيراً في عرض القضايا النحوية والصرفية، وحشوا تفاسيرهم بالعديد من المسائل التي أثقلت التفسير، بحيث تجعل القارئ يتخبط في خضم هذه الآراء والتحليلات، والمناقشات الفقهية...

كما أنهم قد حشوا كتبهم بإسرائيليات نقلوها عن أهل الكتاب، إستناداً لرخصة النبي ﷺ، القائل في حديثه الشريف: "خذوا على بني إسرائيل ولا حرج"²، فعجت مؤلفاتهم بتلك القصص والروايات والأساطير التي أفستت المعنى ووضعت بينه وبين المعنى الحقيقي كثيف الحجاب.

وما زاد الطين بلة تلك التفاسير المشوبة ببعض الأحاديث الموضوعية، وتلك الروايات الضعيفة المزعومة صحتها عن رسول الله ﷺ، والتي كثيراً ما تحيدنا عن المعنى الحقيقي لفهم القرآن الكريم.

لكل ذلك بات من الضروري البحث عن منهج ينقي ويصفي التفسير من الشوائب التي علقته به عبر الزمان، وحالت دون إبراز بعض المعاني القرآنية السامية، والتي تحمل في طياتها هدايات للبشر، فحاول العلماء وضع ضوابط وقواعد تعصم من كل ذلك، فاجتهدوا في إرساء بعض قواعد منهج التفسير الموضوعي، نذكر منها:

- وضع خطة منهجية تتحكم في سير التفسير، بحيث لا يخرج المفسر عنها وهو ملزم باتباع خطواتها، وهي تلك الأطر العامة، وذلك الطريق المتسلسل المتين، الذي ينطلق من مقدمات علمية صحيحة، مستدلاً على ما يعرض من تفسير من الكتاب نفسه، ومما صح عن رسول الله ﷺ، وعمما اجتمعت عليه الأمة وتعارف عليه المسلمون منذ بداية النزول إلى يومنا هذا، ليخلص بعد ذلك إلى نتائج حقيقية مرضية، ولأن النتائج مربوطة بمقدمات، فإن صحت المقدمات، وضح الاستدلال، صحت لزوماً النتائج.

- العمل على ربط معاني القرآن بما ورد في السنة الشريفة، والعمل على التخلص من الروايات الضعيفة الواهية المنكرة، حيث أن الحديث الشريف يساعد على ترجيح بعض مدلولات، سيقته لها الألفاظ التي تحمل أكثر من معنى.

- مراعاة القراءات التي تمكّن المفسر من اختيار بعض الوجوه المحتملة وترجيحها على بعض، لأن القرآن الكريم له عدة قراءات صحيحة متواترة، وهي متلاقية في معانيها، مقتربة في مدلولاتها، وربما تكمل الأخرى قريبتها،

1 - مقال للأستاذ: محمد بن عبدالعزيز الخضير، كلية المعلمين، قسم الدراسات القرآنية، بتاريخ: 2002/02/05م.

2 - حديث رواه البخاري في كتاب التفسير، الجزء 8، ص: 120.

أو توجهها في المعنى، مثل ما جاء في آية الوضوء من سورة المائدة¹، حيث قرأت كلمة "أرجلكم" بالفتح وبالضم، فعطفت الأولى على الغسل، وعطفت الثانية على المسح، فشرع بذلك غسل الرجلين، وكذا مسحهما. وما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾²، فقرأت بإثبات الألف وطرحها، أي "لامستم" و"لمستم" فالأول كناية على الجماع، والثانية على اللمس فقط³.

- التخلص من الإسرائيليات، والتقليل منها، إلا عند الضرورة، ولا تكون إلا فيما وافق القرآن والسنة، وفي حيز ضيق جدا، كوصف جلد بقرة، أو اسم كلب، أو قرية قد اندثرت، أو شيء من هذا القبيل، والذي لا يمد إلى المعنى بصلة، ولا يمس بقدسية هذا الكتاب ومعانيه الشريفة.

- معرفة أسباب النزول والمكي منها والمدني، ومعرفة عون على فهم النص القرآني وجو التنزيل، إذ به تترجح كثير من المعاني، وتتضح أفهام جديدة للمفسر على ضوء ما يستخلصه من أسلوب الخطاب المستعمل في فترات زمنية معينة متباينة فيما بينها، وفي أماكن مختلفة، وربطها بحوادث ومناسبات وربما بأشخاص معينين، فقد يصرح بهم القرآن الكريم، وقد يبهمهم، كما حدث مع الملك بن مروان حينما استشكل عليه فهم قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيَخْرُجُونَ أَنَّهُمْ يُحْمَدُونَ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا...﴾⁴ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في أهل الكتاب. ومثل هذا كثير في القرآن.

- معرفة الناسخ والمنسوخ، وتقتضي معرفته معرفة المتقدم في النزول من المتأخر، لكي لا يقع المفسر أو المفتي مأزق الإفتاء بنص منسوخ، فيُضِلُّ ويُضِلُّ، كأن يفتي بإمسك زوجة جاءت بفاحشة مبينة في بيتها حتى يدركها الموت، أو يجعل الله لها سبيلا، وهو لا يدري أنها نسخت بآية اللعان.

- معرفة القصص القرآني؛ إذ أن التفصيل في القصص التي جاءت في القرآن مجملة، قد يعين المفسر على ترجيح رأي على رأي، لأنه يعطي للمفسر صورة متكاملة حول جزئيات القصة، ويجعله يعيش ذلك الجو الذي تصوره تلك الأحداث الدائرة في فلك القصة، فتمكنه من استخراج هداياتها، واستنباط عضائها، وعبرها، المنبثة في ثنايا جزئياتها، والتي تعود بالفائدة على المتدبر والتالي لكتاب الله، إضافة إلى استمتاع القارئ لهذه القصة وتفسيرها بتلك المشاهد التي تصورها من خلال جزئياتها، فتبقى متعلقة بذهنه، وتؤثر في نفسه، كلما دُكرت هزت نفسه، وحركت مشاعره، وزادت في ورعه وتقواه.

هذه أهم ضوابط منهج التفسير الموضوعي بصورة عامة كما نراها، وأما من كان له الفضل في تفصيل هذه القواعد، فهو الشيخ حنكة الميداني بدون مناس، حيث يذكر في كتابه: "قواعد التدبر الأمل لكتاب الله" حوالي أربعين قاعدة كلها تصب في هذا المعنى من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وهي قواعد شملت في تقديرنا جميع ما

1 - المائدة: آية 6. وهي قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾

2 - سورة النساء: آية 43.

3 - الحجة في القراءات السبع، للإمام ابن خالويه، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط2، 1397هـ/1977م، بيروت. ص: 124.

4 - سورة آل عمران، آية: 188.

يحتاج إليه هذا المنهج من الحيلولة دون وقوع المفسر في الزلل والخطأ، فضلا عن توضيح وتجلية المعنى المراد من آيات الكتاب العزيز، بل إن الشيخ في اعتقادنا لم يترك شاردة ولا واردة إلا أشار إليها، فكان كتابه بحق جامعا مانعا لهذه الضوابط والقواعد، التي تنتظر من يأخذ بها ويطبّقها، بل يحثنا صراحة على ذلك فيقول: «وفي هذه الرسالة كتبت هذه القواعد، وشرحتها بالأمثلة، وقد أكون في بعضها مسبوqa إلى كتابته أو الإشارة إليه، وقد يكون بعض المفسرين قد وضع في تصوره مراعاة بعضها، إلا أنني لم أجد من راعاها كلها مراعاة تامة في كل ما تدبر من كلام الله، كما أن بعض هذه القواعد لم يحظ بعناية أحد من المفسرين، وأمام الباحثين المتدربين لكتاب الله طريق طويلة، قد لا يصلون إلى غايتها مهما بذلوا من جهد وكد، إلا أنهم - من دون شك - سيكتشفون بالبحث كنوزا عظيمة من هذا التنزيل الرباني العظيم»¹ ولا بأس أن نشير إلى بعض هذه القواعد على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر:

إن أول قاعدة تناولها هذا الكتاب هي مراعاة ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة، وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن المجيد²، وهي قاعدة نلمسها في محاولات بعض المفسرين في كشف تلك الروابط والمناسبات بين الآيات والسور، وبين مقاطع السورة كما هو الشأن في تفسير سعيد حوى، وتفسير عبد الله دراز، وضرب لهذه القاعدة أمثلة من القرآن ليستدل على صحة ما يذهب إليه، وأورد في القاعدة الثانية حديثا يدور حول الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، حيث سماها: وحدة موضوع السورة القرآنية³، وضرب لذلك أمثلة بسورة الرعد، وسورة العلق، والقيامة، وجاء حديثه في القاعدة الرابعة عن بيئة نزول النص البشرية، والمكانية، والنفسية، والفكرية، والفردية، والاجتماعية⁴، وهي أبعاد متعلقة بجو النزول وأسبابه، ويختتم هذه القواعد بما أوردنا سابقا عن القراءات، ويحددها في القراءات العشر، ويعني بها مراعاة القراءات المتواترة، مستدلا على كل قاعدة يذكرها في الكتاب بأمثلة من القرآن الكريم، يسرد نماذج ومقاطع لبعض التفسيرات التي تصب في الموضوع المطروح، وتخدم المعنى المقصود، وفيما ذكرنا من القواعد والضوابط كفاية، والله المستعان.

1 - قواعد التدبر الأمثل، حبنكة الميداني، الطبعة الثالثة، دار القلم، سنة: 2004م، ص: 12.

2 - المصدر نفسه، ص: 13.

3 - المصدر نفسه، ص: 27.

4 - المصدر نفسه، ص: 53.

المحاضرة الثانية

مقدمات ومفاهيم حول منهج الحديث الموضوعي

الدرس الثاني

✓ مفهوم الحديث الموضوعي

✓ أهمية الحديث الموضوعي وفائدته

✓ منهجية الحديث الموضوعي

✓ أنواع الحديث الموضوعي

✓ مفهوم الحديث الموضوعي:

عرفنا سابقا الموضوع ونُعرفُ الآن الحديث في اللغة والاصطلاح:

1- أما "الحديث"، فهو في اللغة: "نقيضُ القديم".¹

والحديث: هو اسم من التحديث، وهو الإخبار، ثم سُمِّيَ به قولٌ، أو فعلٌ، أو تقريرٌ يُسببُ إلى النبي - عليه الصلاة

¹- يُنظر: "لسان العرب"؛ لابن منظور، مادة: حدّث 796/2، "لسان العرب"؛ لابن منظور 711هـ، تولى تحقيق "لسان العرب" نُخبة من العاملين بدار المعارف، هم الأساتذة: عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مصر، د.تخ.

والسلام - ويُجمَع على "أحاديث" على خلاف القياس.¹

وقال الحافظ ابن حجر: المراد بالحديث - في عُزْف الشرع - ما يُضَافُ إلى النبيّ - صلى الله عليه وسلم - وكأنه أُريدَ به مقابلة القرآن؛ لأنه قديم.²

ولكن الحافظ قال في "شرح النُخبَة": "الخبر عند علماء الفن مرادف للحديث، وقيل: الحديث: ما جاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والخبر: ما جاء عن غيره، ومن ثَمَّة قيل لمن يشتغل بالتواريخ وما شاكلها: الإخباري، ولمن يشتغل بالسنة النبوية: المحدث³".

وأما "الموضوعي": فهو نسبة إلى "الموضوع"، مأخوذ من "الوضع"، وهو ضد الرفع، وهو لفظ يدلُّ على الخفض للشيء والخطُّ له.⁴

وفي "المعجم الوسيط": "الموضوع: المادة التي يبنى عليها المتكلم أو الكاتب كلامه⁵".

و"الموضوع: هو عبارة عن المبحوث بالعلم عن أعراضه الذاتية⁶".

مما سبق تتبين معاني الحديث الموضوعي من جهة الاصطلاح؛ حيث إنه "اصطلاحٌ جديدٌ شاع على ألسنة العلماء حديثاً، وأطلق اسماً على مادة تُدرّس في كليات أصول الدين بأقسامها المختلفة، وصار عنواناً للون من ألوان دراسة الحديث الشريف⁷".

✓ تعريف الحديث الموضوعي كمركب إضافي:

الحديث الموضوعي: هو مصطلح جديد، وهو عبارة عن جمع الأحاديث المتعلقة بالموضوع الواحد في مكانٍ واحدٍ من مصادر الحديث، مع التعليق الخفيف لشرح الكلمات الغامضة، وبيان الفوائد الحديثية، وما يرشد إليه الحديث⁸.

1- "معجم الكليات"؛ لأبي البقاء الكفوي، ص 370. "معجم الكليات" لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي 1094هـ، قابلته على نسخة خطية، وأعدّه للطبع ووضع فهارسه: د. عدنان درويش ومحمد المصري. مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2: 1419هـ/1998م.

2- فتح الباري بشرح صحيح البخاري" 261/1. فتح الباري بشرح صحيح البخاري؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني 852 هـ، طبعة مُصحَّحة على عدة نُسخ، وعن النسخة التي حقَّق أصولها وأجازها: الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز. دار الفكر - بيروت: 1414هـ/1993م.

3- "نزهة النظر في توضيح نُخبَة الفكر"؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني ص 35. نزهة النظر في توضيح نُخبَة الفكر في مصطلح أهل الأثر؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني 852 هـ، تحقيق وتعليق: د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، ط1: 1422هـ/2001م.

4- أ.د. عبدالرحمن البر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته؛1 موقع البصيرة: الموقع الشخصي للأستاذ الدكتور عبدالرحمن البر.

<http://www.alabaserah.com/news.php?newsid=274>

5- "المعجم الوسيط" مادة وضع، ص (1040). المعجم الوسيط» جمهورية مصر العربية: مجمع اللغة العربية: الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث. ط4: 1425هـ/2004م. مكتبة الشروق الدولية.

6- "معجم الكليات" لأبي البقاء الكفوي ص 868.

7- أ.د. عبدالرحمن البر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته، مرجع سابق

8- الحديث الموضوعي، المكتبة الشاملة، جامعة المدينة، ص: 09.

وأغلب كتب الحديث مؤلفةً بطريقة الحديث الموضوعي، فأغلبها كتب، وأبواب لهذه الكتب، تدور حول موضوع واحد؛ فمثلاً صحيح البخاري يحتوي على كتاب بدء الوحي، وكتاب العلم، وكتاب الإيمان، وهكذا، وتحت كل كتاب أبواب في نفس الموضوع، وهكذا (صحيح مسلم) و (سنن أبي داود) و (سنن الترمذي) وغير ذلك من كتب الحديث، ويتميز (صحيح مسلم) بأنه يجمع كل طرق الحديث في مكان واحد، ثم إن هناك كتب مؤلفة بحسب مرويات كل راوٍ دون التعلق بموضوع الحديث، مثل: (مسند الإمام أحمد) و (المعجم الثلاثة) للإمام الطبراني وغير ذلك.

وهناك كتب ترتب الأحاديث ترتيباً أبجدياً، بحسب الحرف الأول، والثاني والثالث للكلمة الأولى من الحديث، مثل كتاب: (الجامع الصغير) للسيوطي و (الجامع الكبير) له أيضاً المعروف بـ (جمع الجوامع) وكتاب (كنوز الحقائق في أحاديث خير الخلائق) - صلى الله عليه وسلم - لعبد الرؤوف المناوي، و(الجامع الأزهر في أحاديث النبي الأنور - صلى الله عليه وسلم-) له أيضاً، وكتاب (المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة) للإمام السخاوي.... الخ.

1- فوائد الحديث الموضوعي وأهميته:

للحديث الموضوعي فوائد عظيمة؛ بحيث لا يستغني باحثٌ في علم الحديث عن معرفة هذا العلم من أهمها:

أولاً: جمع الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد في مكان واحد، وهذا يفيد من يكتب في موضوع ما فائدة كبيرة حيث يجد كل ما يحتاجه مجموعاً بعضه إلى بعض في مكان واحد فيتيسر عليه الأمر.

ثانياً: معرفة طرق الحديث ومعلوم أن طرق الحديث، كلما زادت أعطت فوائد كثيرة منها تقوية الحديث بتعدد الطرق.

ثالثاً: وفي تعدد الطرق زيادات في السند، وفي المتن، وهذه الزيادات لها فوائد حديثية في السند، وفي المتن؛ إذ الزيادة من الثقة مقبولة فقد تعطي الزيادة أحكاماً فقهية نأخذ بها، ونلزم بها ما دامت جاءت من طريق الثقة.

رابعاً: جمع الأحاديث كلها أو أغلبها في مكان واحد يسهل على الباحث أن يقف على الحديث الصحيح من غير الصحيح.

خامساً: سهولة البحث عن الحديث المعروف موضوعه وعنوانه، يعني عندما يعرف الموضوع الفقهي للحديث؛ يسهل الحصول عليه من هذه الكتب التي ألفت بطريق الحديث الموضوعي.

سادساً: إثارة قضايا حديثية في الحديث الواحد، ثم تناولها قضية قضية بالأدلة الحديثية والآيات القرآنية.

✓ منهجية الحديث الموضوعي:

أما بالنسبة إلى موضوع منهج دراسة الحديث الموضوعي فلقد قسمه د. خالد الشرومان في كتابه (الحديث الموضوعي دراسة تأصيلية تطبيقية) إلى خمسة أنواع هي الآتي:

أ - المنهج الذي يقف عند جمع الأحاديث والحكم عليها والترجمة لها مع التعليق اليسير.

ب - المنهج الذي يعتمد مفردة أو مصطلحاً نبوياً في الدراسة الموضوعية.

ت - المنهج الذي يعتمد على أحاديث في مصادر محددة.

ث - المنهج الذي يعتمد حديثاً واحداً للدراسة الموضوعية.

ج - المنهج الذي يعتمد على عدة أحاديث دون استقصاء ودون تحديد للمصادر.

وإن ثمة مناهج عديدة لدراسة الحديث الموضوعي أهمها:

أولاً: منهج الدراسة الموضوعية التي تقوم على استقصاء ما في كتب السنة النبوية من أحاديث عن موضوع الدراسة.

ثانياً: منهج الدراسة الموضوعية التي تعتمد على جمع أحاديث في موضوع الدراسة من مصادر مُحدّدة من كتب السنة.

ثالثاً: منهج الدراسة الموضوعية التي تعتمد على جمع روايات حديث واحد مع دراسة موضوعه¹.

✓ أنواع الحديث الموضوعي:

يمكن تقسيم الحديث الموضوعي إلى نوعين:

الأول: الحديث الموضوعي العام:

وهو الذي بين أطراف موضوعه وحدة في الغاية فقط، لا في أصل المعنى.

بمعنى أن هذا الموضوع يكون له أصل في الأحاديث، ولكن تحته قضايا كثيرة متعدّدة، لا يربط بينها إلا وحدة الغاية، وهي وحدة محقّقة، حتى وإن كانت بعيدة.

من ذلك مثلاً قضية الأدب، فهي تشمل الأحاديث التي تتناول الأدب النبوي، في قضايا متعدّدة، يجمع بينها أنها من جملة الأدب.

الثاني: الحديث الموضوعي الخاص:

وهو الذي يقوم على وحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده، فتكون الرابطة بينهما خاصة وقريبة.

من ذلك كل موضوع خاص من الموضوعات التي تناوّلها كتاب "الأدب المفرد" للإمام البخاري، وكذلك موضوع "آداب النية والإخلاص"، وموضوع "آداب المجالسة"، ونحو ذلك.

¹ - يُنظر للتفصيل في هذه المناهج: "الحديث الموضوعي دراسة نظرية"؛ رمضان إسحاق الزّيان، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر، العدد

ومن ذلك كتب الإمام الحافظ أبي بكر بن أبي الدنيا الكثيرة، ككتاب "الصّمت"، و"الشكر"، و"التوكل على الله"، و"التواضع والخمول"، وغيرها من كتبه وكتب غيره من مشاهير العلماء، ومن ذلك موضوع "اليهود في السنة النبويّة المطهرة"، وموضوع "منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم"، ونحو ذلك¹.

القسم التطبيقي

أولاً: تطبيق منهج التفسير الموضوعي

أولاً: الدلائل وفيه:

1- دليل الآفاق في القرآن الكريم دراسة موضوعية.

2- دليل الانفس في القرآن الكريم دراسة موضوعية.

ثانياً: المناهج وفيه:

1- منهج القرآن في الاستدلال على عقيدة التوحيد.

¹ - أ.د. عبدالرحمن البر: معنى الحديث الموضوعي وفوائده 1؛ موقع البصيرة: الموقع الشخصي للأستاذ الدكتور عبدالرحمن البر.

<http://www.alabaserah.com/news.php?newsid=274>.

2- منهج القرآن في الاستدلال على عقيدة البعث.

3- منهج القرآن في الاستدلال على النبوات.

ثالثا: الجدل وفيه:

1- الجدل في القرآن الكريم -نوح عليه السلام- أمودجا.

2- الجدل في القرآن الكريم -إبراهيم عليه السلام- أمودجا.

3- الجدل في القرآن الكريم -موسى عليه السلام- أمودجا.

رابعا: متفرقات وفيه:

1- القضاء والقدر في القرآن الكريم

2- كلمة التوحيد في القرآن الكريم

3- وحدة التدبير في القرآن الكريم -سورة يوسف- أمودجا.

4- وحدة التدبير في القرآن الكريم -سورة القصص- أمودجا.

5- المضامين العقدية للقصص القرآني.

ثانيا: تطبيق منهج الحديث الموضوعي

وفيه:

1- المسيح عليه السلام في الحديث النبوي دراسة موضوعية.

2- عقيدة المهدي المنتظر في الحديث النبوي.

3- القضاء والقدر من خلال السنة النبوية.

4- حقيقة الشرك من خلال الحديث النبوي -صحيح مسلم- أمودجا.

5- حقيقة الكفر من خلال السنة النبوية دراسة موضوعية.

المحاضرة الثالثة

الدرس الأول

دليل الآفاق ودليل الأنفس في القرآن الكريم

-دراسة موضوعية-

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)

تمهيد:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم هدى للناس أجمعين ليخرجهم من الظلمات الى النور بإذن ربهم ويهديهم سبل السلام فعالج كل مشاكل الانسانية وبين لهم الهدف من الوجود بل عرف الخلق بأصل وجوده وغايته وحدد له صلته مع ربه وخالقه وعلمه الحقوق والواجبات التي بينه وبين موجدته وبينه وبين الخلق.

ولم يترك الناس حيارى في ما يؤمنون به وما يصلح لهم وما يكون لهم طريقا لما يبتغونه في الحياة الدنيا وفي الآخرة مع أنه قد ميز الانسان على باقي المخلوقات بالعقل وأمره بإعماله في التفكير والتدبر والامعان. قل سيروا في الأرض... وكم من آية في السموات والأرض يمدون عليها... أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت... أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا... حيث ذكرت آيات التفكير والتدبر في القرآن الكريم ولقد جاء في القرآن الكريم الحث على التفكير في مواضع عديدة؛ حيث وردت مادة: (التفكر) في حوالي تسعة عشر موضعاً في القرآن الكريم¹، وحثمت سبع آيات² من كتاب الله بقوله - تعالى - : {لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} في إشارة إلى أن هذه الآيات العظيمة التي تُذكر قبلها؛ لا ينتفع بها إلا ذوو العقول المتفكرة. وفي مواضع أخرى جاء التشنيع والتوبيخ على القوم الذين عطلوا عقولهم وتفكيرهم، كما في سورة الحج: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبًا يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانًا يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46].

وقد استدلل الله تعالى على وجوده بأكثر من دليل وجعل آيات وبراهين وسنن في الكون للاهتداء بالرغم من أنه قد أنزل شرعا مبينا وأيده بدلائل حسية ومعجزات نبوية وخوارق كونية الا أن الانسان كان أكثر شيء جدلا وإنكارا وجحودا، وربما بعض الناس شاهد المعجزات وعاصر النبوات ولكنه أيضا لم يؤمن فلماذا؟

إن دلائل الآفاق ودلائل الأنفس لا يختلف فيها اثنان الا في حدود نسبية المادة العلمية المكتشفة أو في تفاوت العلماء في إدراك الأسباب والقوانين وكشف السنن والبراهين على حكمة الصنع ودقة الخلق بل حتى في أبسط صورة لمظاهر الطبيعة.

1- تعريف دليل الآفاق والأنفس

أ/: معنى الدليل: في اللغة والاصطلاح

1- ينظر كتاب: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق، لرقية العلواني: صفحة: (19).

2- كما في سورة يونس الآية (24) والرعد الآية (3) والنحل في موضعين الآية (11) و (69)، والروم الآية (21)، والزمر الآية (42)، والجمانية الآية (13).

الدليل لغة: صيغة مبالغة من اسم الفاعل (دال) وهو من دل يدل على الشيء دلاً، وهو ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة اللفظ على المعنى، ومنه قوله تعالى: (مَا ذُكِّمَ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ) فجعل الله سبحانه وتعالى انكسار عصاه سبباً لظهور موته، والأصوليون يعبرون عن المعنى اللغوي بعبارة مقارنة فيقولون: (هو المرشد والكاشف).

والدليل اصطلاحاً: " ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري"¹.

(ما يمكن التوصل): احتراز به مما لا يمكن التوصل به إلى معرفة الأشياء كالكلام المهمل واللغو والجمل غير المفيدة. (بصحيح النظر): احتراز به مما يمكن المستدل التوصل به على مقصوده، ولكن بنظر واستدلال فاسد كاستدلال المعتزلة على نفي رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بقوله تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)، ويدخل في ذلك المقدمات الفاسدة.

(إلى مطلوب خبري) قيد لبيان دخول الأمارات (وهي الظنيات) في مسمى الدليل خلافاً للمعتزلة فقد قصروا مسمى الدليل على ما أفاد القطع وهذا ليس بصحيح؛ لأن الله تعالى تعبدنا بالقطع فيما أفاد القطع وتعبدنا بالظن فيما أفاد الظن، فالموصل إلى المطلوب الخبري إن كان قطعياً سمي دليلاً فكذلك إذا كان ظنياً سمي دليلاً أيضاً إذ لا فرق بينهما كل منهما مقصود في نفسه وواقع التكليف به على حسب حاله.

2- الالفاظ القريبة من الدليل الواردة في القرآن الكريم

1/الحجة: لغة: هي ما يدفع به الخصم من حجه، يحجه إذا غلبه. اصطلاحاً: ما دلّ على صحة الدعوة.

2/البرهان: لغة: من بره يبره إذا أبيض فكأن الشيء في قيام حجته يبيض ويتضح.

3/البيينة: لغة: على وزن " فعيلة" من البيئونة وهي الانقطاع والانفصال، أو من البيان.

اصطلاحاً: اسم لكل ما يبين الحق ذكره" ابن القيم في إعلام الموقعين".

4/الآية: لغة: العلامة الظاهرة واشتقاقها من أي لأنها تبين أيّاً عن أي يعني تبين شيئاً عن شيء.

اصطلاحاً: اسم لما يوجب العلم قطعاً عند التأمل.

5/السبب (وبعضهم سماها علة): لغة: ما يتوصل به إلى غيره، ومنه سمي الحبل سبباً.

اصطلاحاً: ما يكون طريقاً إلى الحكم دون أن يثبت به.

1- التعريفات للجرجاني، ج3، ص: 221.

ب/ معنى الافق في اللغة والاصطلاح:

الجمع: آفاق، او لَأْفُقٌ مِنَ الطَّرِيقِ: وَجْهُهُ، وَالْأْفُقُ: النَّاحِيَةُ.

الأفق: خطٌ دائريٌّ يَرى فيه المشاهد السَّمَاءَ كأنها مُلْتَقِيَةٌ بالأَرْضِ، وَحَطُّ الأفق: ملتقى الأرض بالسَّمَاءِ، قامَ بِجَوْلَةٍ فِي الأفقِ: جَوْلَةٌ دَائِرِيَّةٌ اسْتِطْلَاعِيَّةٌ، وَهُوَ جَوَّابٌ آفاقِهِ: كَثِيرُ الأَسْفَارِ، وَالْأْفُقُ مَدَى الاطِّلاعِ، يقال في المعرفة والرأي: فلان واسع الأفق أو ضيق الأفق كَشَفَ آفاقاً جَدِيدَةً: جَوَانِبَ، مَعَالِمَ، جِهَاتٍ، أَمَاكِنَ، وَسَعَّ آفاقَ مَعَارِفِهِ: مَدَارِكُهُ، وإمكاناتِهِ هُوَ وَاسِعُ الأفقِ، بَلَغَتْ شَهْرَتُهُ الآفاقَ: مَلَأَتْ شَهْرَتَهُ بَقَاعَ الأَرْضِ، ضَرَبَ فِي الآفاقِ: تَنَقَّلَ بَعِيداً، تَجَوَّلَ، والآفاق: أَقْطَارُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ

ج/ معنى النفس في اللغة والاصطلاح:

النفس في اللغة:

أولاً: النفس بمعنى الروح، يقال: خرجت نفس فلان؛ أي: روحه¹، ومنه قولهم: فاضت نفسه؛ أي: خرجت روحه².

ثانياً: النفس بمعنى "حقيقة الشيء وجملته، يقال: قتل فلان نفسه؛ أي: ذاته وجملته، وأهلك نفسه؛ أي: أوقع الإهلاك بذاته كليها³، ومنه قول صاحب الصحاح "والتكبر: هو أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره"؛ أي: ذاته⁴.

ثالثاً: النفس بمعنى "الحسد، والعين، يقال: أصابته نفس؛ أي: عَيْنٌ، والنفس العائن .

رابعاً: النفس بمعنى الدم، وذلك أنه إذا فُقد الدم من الإنسان فَقَدَ نفسه؛ أو لأن النفس تخرج بخروجه، يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: ((ما ليس له نفس سائلة لا يُنَجَسُ الماء إذا مات فيه⁵.

خامساً: النفس ما يكون به التمييز، والعرب قد تجعل النفس التي يكون بها التمييز نفسين؛ وذلك أن النفس قد تأمره بالشيء وتنهى عنه، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا التي تأمره نفساً، وجعلوا التي تنهاه كأنها نفس أخرى⁶

1- لسان العرب للمؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، ابن منظور الأنصاري، الرويفعي، الإفريقي. ج5، ص: 221.

2- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية؛ للمؤلف: أبو نصر، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، ج3، ص: 551.

3- باختصار من كتاب الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للمؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، ج3، ص: 332.

4- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز؛ للمؤلف: مجد الدين، أبو طاهر، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ج2، ص: 651

سادساً: النَّفْسُ بمعنى الأخ¹، وشاهده قول الله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ حَيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: 61].

وجمع النفس: أنفُسٌ ونفوس، أما النَّفْسُ، فهو خروج الهواء ودخوله من الأنف والفم، وجمعه أنفاس، وهو كالغذاء للنَّفْس؛ لأن بانقطاعه بطلانها.

تعريف النفس في الاصطلاح:

قال صاحب كتاب التعريفات: النَّفْسُ هي الجوهر البخاري اللطيف، الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسمها الحكيم: الروح الحيوانية، فهو جوهرٌ مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن وباطنه، وأما في وقت النوم، فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه.²

تعريف النفس عند العلماء المعاصرين:

ذكر العلماء المعاصرون للنفس عدة تعريفات؛ منها: أن النفس "هي جوهر الإنسان، ومحرك أوجه نشاطه المختلفة؛ إدراكية، أو حركية، أو فكرية، أو انفعالية، أو أخلاقية؛ سواء أكان ذلك على مستوى الواقع، أو على مستوى الفهم، والنفس هي الجزء المقابل للبدن في تفاعلها وتبادلها التأثير المستمر والتأثر، مكونين معاً وحدة متميزة نطلق عليها لفظ (شخصية) تُميز الفرد عن غيره من الناس، وتؤدي به إلى توافقه الخاص في حياته."³

3- معاني النفس في القرآن الكريم:

وردت (النَّفْس) في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وتعددت معانيها بحسب سياق الآيات الكريمة الواردة فيها، ومن هذه المعاني:

أولاً: النفس بمعنى الرُّوح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44]؛ أي: تتركون، ويقال: خرجت نَفْسُهُ، خرجت رُوحُهُ، والدليل على أن النفس هي الروح قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: 42]؛ يريد الأرواح.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: 93]، ولك أن الكافر إذا احتضر بشَرَّتْهُ الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق رُوحُهُ في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ بُحْزُونَ عَذَابِ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93]؛ أي: اليوم تُهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسله.

² - من كتاب التعريفات للمؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، (المتوفى: 816 هـ)، بإيجاز بسيط.

³ - الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف الدكتور محمود حمدي زقزوق.

ثانيًا: النفس بمعنى الإنسان؛ أي: الشخصية البشرية بكامل هيئتها، وهي الإنسان بكامل دمه ولحمه وشخصيته، وهذا كثير وغالب في القرآن، فمن ذلك الآيات التالية:

قال الله تعالى مخاطبًا الناس عامة وبنِي إسرائيل خاصة، بأن يحدروا يوم الحساب ويعملوا صالحًا، وأن الإنسان يأتي ربه في ذلك اليوم فردًا ولا تنفعه شفاعة الشافعين: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: 48]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: 145].

وقد شاع استعمال النَّفْس في الإنسان خاصة؛ حيث تطلق ويراد بها هذا المركَّب والجملة المشتملة على الجسم والروح¹، ويظهر هذا في غير ما سبق، في قوله تعالى أيضًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: 33]، والمقصود هنا الرجل الذي قتله موسى عليه السلام في أرض مصر؛ يعني الرجل القبطي.

ثالثًا: النفس بمعنى القوى المفكرة في الإنسان (العقل): ومنه قوله تعالى: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116]؛ قال الطاهر بن عاشور في تفسيره: "والنَّفْس تُطَلَّق على العقل وعلى ما به الإنسان إنسان، وهي الروح الإنساني، وتطلق على الذات، والمعنى هنا: تعلم ما أعتقده؛ أي: تعلم ما أعلمه؛ لأن النفس مقرُّ العلوم في المعارف، وإضافة النفس إلى اسم الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يطلع عليه غيره؛ أي: ولا أعلم ما تعلمه؛ أي: مما انفردت بعمله، وقد حسَّنه هنا المشاكلة كما أشار إليه في الكشف².

4- تعريف المركب الاضافي: دليل الآفاق والأنفس:

سبق وأن عرفنا معنى الدليل والآفاق من خلال ما سبق يمكن أن نعرف هذا المركب الاضافي "دليل الآفاق والأنفس" وهو كل ما يستدل به على خبر أو علم في ثنايا هذه الأفق وهذه النفس التي تنطوي على سنن كونية وقوانين علمية (فيزيائية وكيميائية واجتماعية) ثابتة مطردة أودعها الله فيها ليستدل على وجوده ووحدانيته وعلى قدرته وحكمة صنعه.. ليتفكر فيها ويتدبرها كل عاقل ليصل من خلالها الى الإيمان بالله.

5- فضل التفكير واعمال العقل في أدلة الآفاق والانفس:

إن هذه الآيات وغيرها تُظهر للمتأمل أهمية العقل والتفكير، وأنها نعمة ربانية عظيمة اختص الله بها الإنسان، وجعلها مناط التكليف، وميَّزه بها عن غيره من بين سائر الجمادات والعجماوات، وقد نص بعض العلماء على أن

1- آفات النفس؛ تأليف نعيمة عبدالله البرش، إشراف الدكتور رياض محمود قاسم، ص: 330.

2- التحرير والتنوير، "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"؛ المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (المتوفى: 1393 هـ). ج2، ص: 110.

منزلة التفكر تعد من أفضل الأعمال وأشرفها¹؛ «وذلك لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف الجوارح؛ فكان عمله أشرف من عمل الجوارح»².

ولقد كثر الحث في كتاب الله - تعالى - على هذه العبادة الجليلة³؛ نظراً لأهميتها وفضلها العظيم؛ حيث إنحاء توارث العلم والمحبة، والنور والإيمان، وهي عبادة أهل الصلاح والتقوى، يقول الحسن بن عامر: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان: التفكير⁴.

6- مجالات التفكير والتدبر في أدلة الافاق والانفس

جاء في التعريفات للجرجاني أن المراد بالتفكر هو: إعمال القلب في النظر في الأدلة⁵.

وما يعيننا من الأدلة هنا أنها الآيات الواردة في كتاب الله - عز وجل - امثالاً لقوله - تعالى - : { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ } [البقرة: 219].

ولو تأملنا مجال التفكير في آيات القرآن لبرز لنا مجالان عظيمان أشار إليهما الإمام ابن القيم في كتابه القيم: مفتاح دار السعادة⁶:

فالمجال الأول هو: التفكير في الدليل القرآني: وفيه يكون التفكير في آيات الله المسموعة التي حث الله - عز وجل - على التفكير فيها وتدبرها في أكثر من نص في القرآن الكريم كقوله - تعالى - : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل: ٤٤]، وقوله - تعالى - : { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الحشر: 21]؛ وذلك أن المرء يتفكر في هذه الأدلة حين سماعها أو تلاوتها، وما تتضمنه من دلائل باهرة تحث على توحيد الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر.

ويتفكر أيضاً فيما جاء فيها من معجزات ودلائل وبشارات ونذارات وعبرة وأحكام، ونحوها، ويتفكر في معجزة ألفاظه، وعظمة أحكامه، وقوة حججه وبراهينه... إلخ.

فهذا التفكير يورث في القلب محبة الخالق وتعظيمه، وإخلاص العبادة له، والتوكل عليه، وزيادة الإيمان واليقين، وغير ذلك من مقامات العبودية وأعمال القلوب.

1- يقول الحسن - رحمه الله تعالى - : (إن من أفضل العمل: الورع والتفكر). ينظر: (الزهد، لابن المبارك، صفحة: 96).

2- مفتاح دار السعادة: (180/1).

3- ينظر إحياء علوم الدين: (423/4).

4- تفسير ابن كثير: (185/2).

5- التعريفات، للجرجاني، ص: (167).

6- ينظر مفتاح دار السعادة: (187/1).

والمجال الثاني: التفكير في الدليل العياني: وهو آياته المشهودة، ولقد أثنى الله - عز وجل - على من يتفكر في ذلك، فقال - تعالى - : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ 190 الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: 190 - 191].

وقد ثبت في صحيح ابن حبان وغيره مرفوعاً: «لقد نزلت عليّ الليلة آيةً ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها... ثم تلا هذه الآية»¹.

فتأمل كيف أن الآيات الواردة في القرآن تلفت الأنظار إلى الآيات المشاهدة من أجل أعمال التفكير، وتأمل أيضاً كيف حُتِّمت بالدعوة والحث على التفكير.

فكيف يأنس بهذا الوجود من نظَّر بعين فكره المبدأ والمنتهى؟ وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟²

7- حكم التفكير والتدبر في آيات الله

يظن الكثير من الناس أن أياً من التدبُّر في كلام الله - القرآن الكريم - أو التفكُّر في خلق الله المحسوس - الكون الفسيح - هو رفاهية فكرية يستمتع بها محبو الفكر في وقت صفائهم الذهني. إن هذا الظن هو من أكبر الأخطاء في فهم دين الإسلام. إن التدبُّر والتفكُّر لهما واجبان حتميان على أي مسلم يريد أن يرضي الله تعالى في الدنيا والآخرة. المعارف الأساسية للإيمان الصحيح: الإيمان الصحيح لن يتحقق إلا بمعارف أساسية:

1- معرفة قدر الله وعظمته بالتفكُّر في آيات الله الكونية الدالة على جلاله تعالى، وقد جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بالأمر بالتفكُّر في هذه الآيات الكونية والتحذير كل الحذر من إهمالها.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في جزء من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: «لقد نزلت عليّ الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}» صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [آل عمران: 190-191] صدق الله العظيم.

2- المعرفة والتدبُّر فيما أرسله الله لنا من كتاب كريم - القرآن العظيم - كإرشادٍ لنا في الدار الدنيا حتى نصل إلى الآخرة بسلام.. قال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: 24] صدق الله العظيم. وهاتان

¹ - صحيح ابن حبان: (620). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وحسنه الألباني في صحيح الترهيب والترهيب: (1468).

² - صيد الخاطر: (275، 276).

المعرفتان الأساسيتان لا يمكن الحصول عليهما إلا بالتفكير في كون الله والتدبر في كتاب الله. ويُخطئ المرء لو ظن أن التفكير والتدبر هما حكراً على طبقة معينة من الناس يدعون لأنفسهم أو يشهد الناس لهم بالفكر والمعرفة، لا.. فإن من عظمة كتاب الله أن الإنسان البسيط والعالم الكبير، كلاهما، يستطيعان استخراج لآلى المعرفة والفكر منه والتدبر فيها، لذلك نرى الآية من كتاب الله يفهمها الرجل البسيط فهماً ويفهمها العالم المتمكن فهماً آخر وكلا الفهمان قد يكونان صحيحان في الآن ذاته. وأيضاً فإن من عظمة خلق الله أن البدوي البسيط يستطيع أعمال عقله فيه، فيدرك وجود الله وعظمته وجلاله وذلك كما قال الأعرابي الذي سُئل عن وجود الله فقال: "السير يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فأرضٌ ذات فجاج! وبحارٌ ذات أمواج! وسماءٌ ذات أبراج، ألا يدل هذا كله على وجود الحكيم الخبير". والعالم العبقرى يجد وجود الله جلياً أمامه، تنضح بدلالاته أسرار الكون وخفاياه. ومثال ذلك ما كشفه العلم الحديث في "المبدأ الإنساني القوي" من أن خصائص الكون خلقت ملائمة تماماً لإعالة الحياة فيه - وليس في الأرض وحدها بل في الكون بأسره- مما يدل على تصميم الله تعالى الفائق الإتقان للكون لهدف رعاية الحياة وحمايتها. خطورة عدم التفكير في آيات الله: إن عدم التفكير في آيات الله الكونية -ظواهر الكون الدالة على عظمة الله وجلاله- والقرآنية هو مصيبة كبرى في الآخرة، فانتبهوا انتبهوا يا أولي الألباب. قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى} [طه:124-126] صدق الله العظيم. والذكر هنا ليس ذكراً باللسان فقط بل الأهم من ذكر اللسان هو ذكر القلب والعقل. ذكر آيات الله وعدم نسيانها سواءً القرآني منها والكوني. والنسيان -العفلة والتجاهل- كما تنبّه الآية يجرُّ إلى خطر جلل.

8- مجالات دليل الآفاق والأنفس في القرآن الكريم

قال تعالى: "لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون" من خلال هذه الآية يتبين لنا أن مجال الاستدلال والنظر والتفكير والتدبر يكون أوسع وأشمل في الآفاق منه في الأنفس وهو في الحقيقة يشمل أقساماً عديدة منها: علم الفلك علم وعلم الجغرافيا والجيولوجيا وعلوم الأرض والبيولوجيا وغيرها.

1- مجالات دلالات الآفاق:

أولاً: آيات الآفاق وعلم الفلك والفضاء وفيه خلق السموات والأجرام والنجوم والكواكب والنيازك وغيرها والكسوف والخسوف والنور والظلام... الخ. وفيها آيات كونية لا حصر لها نذكر منها على سبيل المثال: قوله تعالى: "إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيه من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" (البقرة/آية 164). "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (97) الانعام.

- هذه الآيات آيات الآفاق والأنفس قلبت مكان الدليل ومصدره، كما قلبت آية التغيير مفاهيم الناس. فآية الآفاق والأنفس حددت مكان الدليل ومصدره بأنه ليس الكتاب، فلا نطلب كيف بدأ الخلق من الكتاب، وإنما نطلبه من السير في الأرض والنظر، كما أمر بذلك الكتاب، فالحكم في الكتاب، والدليل في الواقع والأرض وآيات الآفاق والأنفس، وكذلك سبق أن أشرنا كيف أن الذي حل النزاع في علم الفلك والإجرام السماوية لم تكن النصوص، وإنما آيات الله في الآفاق والأنفس، لأن النصوص لا تبحث علم الفلك، وإنما تلفت نظر الإنسان إلى مغزى هذا الكون المليء بالأسرار الذي ينبغي أن يصل هو في بحثه في الفلك وكذا سائر العلوم.

وعلم الفلك مثل واضح وقريب يؤكد أن آيات الآفاق والأنفس توحد الفهم وتزيل النزاع والخصام، فبعد أن شهدت آيات الآفاق على علم الفلك، لم يعد هناك جدال ولا خصام وتوحد فهم العالم لسير الأرض والشمس والقمر والنجوم. ولم يعودوا يتطرحون النصوص في الشد والجذب والتضليل والتفكير. فهكذا إذا رأينا آيات الآفاق والأنفس وتمكنا من أن نربها لغيرنا فهناك يزول التدابر ويحل الوثام، ويتبين لهم أين موطن الحق (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) (فصلت / 53).

ثانياً: آيات الآفاق وعلم الجغرافيا والجيولوجيا وتشمل علم الأرض وما فيها من تضاريس كالجبال والبحار والسهول والبراكين وغيرها وخطوط الطول والعرض وكل ما يتعلق بها.

فالجبال: من أعظم آيات الله في الكون الجبال تلك الجبال التي نراها من حولنا وفي الصحراء، نمر عليها مر الكرام، بل تعجبنا ارتفاعاتها الشاهقة وأحجامها الضخمة وامتداداتها الشاسعة وكائننا ننظر الى حجر ضخمة أصم، لا يتحرك بل تؤثر فيه عوامل التجوية المختلفة من رياح وأمطار وارتفاع الحرارة بالنهار وانخفاضها بالليل وغير ذلك من عوامل التعرية.

"قال تعالى: وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعاً لَّكُمْ وَلَآئِعاً لِّكُمْ (33) [سورة: النازعات] [فالمهمة أو الوظيفة الحقيقة التي خلقت من أجلها الجبال هي تثبيت الأرض من أن تميد أي تضطرب وتمور، قال تعالى]: "وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" [سورة: النحل - الآية: 15] [فهى تعمل على ثبات وتماسك وتوازن القشرة الأرضية من التفتك والاندثار ولذلك لكثرة الصدوع بالقشرة الأرضية، قال تعالى]: "وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ" [سورة: الطارق - الآية: 12] [ولذا نجد القشرة الأرضية يوجد بها العديد من الجبال مثل جبال الهيمالايا وزاجروس والقوقاز والروكي والإنديز وسلاسل جبال البحر الاحمر والأطلس المغرب العربي وغيرها].¹

وأما البحار: فنحن نعلم أنّ الماء يغطي ثلاثة ارباع سطح الكرة الأرضية، وأنّ المحيطات والبحار ترتبط مع بعضها، كما نعلم أنّ الإنسان قد استثمر البحار للحمل والنقل منذ غابر الأيام على افضل وجه، بالإضافة إلى استغلاله

1- د. إبراهيم طرايبة <http://quran-m.com/quran/article/2646> / من - أعظم - آيات - الله - في - الكون - الجبال.

لجانِبٍ مهمٍّ من المواد الغذائية الكامنة في البحر، وكذلك فإنَّ القسم الأعظم من مختلف المواد التي تُستعمل في الصناعات تُستخرج من البحار.

لهذه الأسباب اعتبرَ القرآنُ الكريمَ البحارَ والفلَك من آيات الله، ودعا الناس إلى التمعن في أسرارها.

1- { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِيَبْتَلِيَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (النحل / 14).

2- { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ اجْجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيَبْتَلِيَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (فاطر / 12).

توضيحات وهدايات:

البحرُ مركز لأنواع النعم

البركات والمنافع التي ينالها الإنسان اليوم من البحار حيث بإمكاننا أن ندرج قسماً منها، ولا يتسع هذا البحث المختصر لبيانها كلها:

1- إنَّ البحرَ له أهمية بالغة في الإبحار وحمل ونقل الناس والسلع التجارية، وكما اشرنا فإنَّ البحار تعتبر اهم وسائل البشر للحمل والنقل. لا سيما الخطوط البحرية التي تمتد بشكلٍ طبيعيٍّ إلى بقاع الأرض كافة، ويكفينا اللاتفات إلى هذه الحقيقة وهي صناعة البواخر العملاقة التي تستطيع أن تستوعب (خمسمائة الف طن) من النفط وتنقله إلى أيِّ نقطةٍ في العالم.

وهذا يلزم توفر (خمس وعشرين الف سيارة ذات حمولة 20 طناً) لحمل هذه البضاعة.

2- المواد الغذائية- ومن أهم الفوائد الاخرى للبحار هي المواد الغذائية التي يحصل عليها الإنسان منها.

فمن أجل معرفة أهمية هذا الأمر يكفينا العلم بأنه يتم صيدُ ست وعشرين مليون طن من الأسماك سنوياً، علماً أنَّ هذا الاحصاء يتعلق بثلاثين عاماً مضت، ومن المسلم به أنَّ هذا الرقم قد تضاعف كثيراً في الوقت الحاضر.

وليس الإنسان وحده بل إنَّ الكثير من الطيور تحصل على طعامها من البحار أيضاً، وهذا بحد ذاته اقتصاداً في استهلاك المواد الغذائية الجافة.

ثالثاً: آيات الآفاق وعلوم الأرض وما يعيش فيها والبيولوجيا وتشمل النبات والحيوان والمواد العضوية

والأملاح المعدنية وكل ما يتعلق.

من آيات النبات في القرآن الكريم:

﴿...وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج: 5)

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَّجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَصِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: 4)

ومن آيات الله في النبات أنه عالم قائم بذاته ما زال العلماء يجتهدون في دراسته و في كل يوم يقطعون في كشف خصائصه أشواطاً شاسعة... و قد قسم العلماء النبات إلى عدة أقسام مختلفة بالنسبة لصفاتها التشريحية، أو تناسلها، أو بيئتها وينبت النبات عموماً من بذرة تتوافر لها ظروف خاصة، أهمها حيوية الأجنة فيها، و تحافظ البذور على حيويتها لمدة طويلة تعتبر في ذاتها دليلاً على وجود الله، فقد أمكن استنبات حبات قمح وجدت في قبور الفراعنة. و يجب توافر الماء الضروري للإنبات و الحرارة المناسبة، فكل بذرة تنبت في درجة حرارة معينة، و الهواء ضروري للنبات، فو كائن حي يعيش و يحيا و يتنفس بل و يحس.. يحزن و يسعد..

من آيات الله في الحيوان:

إنَّ الحيوانات تُمثل جانباً عظيماً من الموجودات الحيَّة في العالم، وهي تجلب اهتمام كلِّ ناظرٍ إليها لتراكيبها المختلفة واشكالها المتنوعة وتباينها الكثير، وعجائبها العظيمة، ودراسة كلِّ منها، تُعرِّفُ الإنسان على العلم والقدرة اللامتناهية.

1- { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ } . (الشورى/ 29)

2- { إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ } . (الجاثية/ 4-3)

3- { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ } . (الغاشية 17)

في امتلاك جهاز اتصالات متكامل، لا سيما التكلم وجهاز اتصالات النحل، فهو أكثرها عجباً وندرة¹.
لقى عالم أحياء سويدي محاضرةً تثير الاهتمام في جامعة «لاندر» حول لغة النحل وكانت نتيجة هذا التحقيق والتجربة التي أجراها عالم الأحياء هذا بمساعدة الأجهزة وعن طريق المقايسة، أمَّا لغة يمكن فهم معناها².
إنَّ عجائب عالم الحيوانات أكثر من أن يُؤدى حُفها في كتابٍ واحدٍ أو عشر كتب.
والأفضل أن نكتفي بهذا المقدار ونغلق الملف ونقول بكل خضوعٍ وخشوعٍ أمام الحضرة الإلهية المقدسة:
«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ لَا تُحْصَى عَجَائِبُ خَلْقَتِكَ وَإِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

1- مجلة الصيد والطبيعة، العدد 72.

2- تربية النحل، ص 60.

هذا المجال يعتبر أقل اتساعاً من مجال دلالات الآفاق ذلك أنه يشمل خلق الانسان وأصل وجوده وتكوينه ومراحل نشأته في الأرحام وفي هذه الحياة وكل ما يتعلق بها من تغذية ومرضه وشفاءه وحركته وسعيه وعلاقاته الشخصية وحالاته النفسية ثم موته ومصيره بعد الموت.

أولاً: آيات خلق الانسان وتشمل علم الأجنة ومراحل نموه في الرحم وكذا مراحل عيشه وتطوره من نشأ الى آخر.



مراحل خلق الإنسان في بطن أمه:

كما أن القرآن الكريم تحدّث عن مراحل خلق الإنسان الأول، كذلك تدرّج في الحديث عن خلق سلالة هذا الإنسان، ومن الآيات التي تُشير إلى هذه المراحل قوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَجِيرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿ الحج: 5.

وقوله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿ المؤمنون: 12 - 14.

1- النطفة:

ورد ذكر كلمة نطفة في القرآن الكريم في اثني عشر آية منها:

قال - تعالى -: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿ النحل: 4.

وجاءت هذه المرحلة بعد اكتمال خلق أول ذكرٍ وأول أنثى من الكائن البشري، والنطفة مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة؛ حيث يختلط بعد عملية الجماع ماء الرجل مع ماء المرأة فيصير الماءان نطفة.

2- العلقّة:

ورد ذكر لفظ العلقه في القرآن الكريم في خمس آيات منها:

قال - تعالى :- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْنًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ ﴿ الحج: 5.

والعلقه: هي القطعة من العلق وهو الدم الجامد.

3- المضغة:

ذكر لفظ المضغة في القرآن الكريم ثلاث مرّات مرتين في سورة المؤمنون: 14، ومرة واحدة في سورة الحج: 5، والمضغة هي القطعة الصغيرة من اللحم بقدر ما يُمضغ.

وبعد عمليه العلق تبدأ مرحلة المضغة في الأسبوع الثالث، وهذا الطور يمر بمرحلتين:

أ- غير المخلّقة:

تستمر هذه المرحلة من الأسبوع الثالث حتى الأسبوع الرابع، ولا يكون هناك أي تمايز لأي عضو أو جهاز.

ب- المضغة المخلّقة:

يمر الحمل بعد نهاية الأسبوع الرابع بجملة من التغيرات الدقيقة والمدهشة، وتنمو فيها الخلايا وتتطوّر، ليكون الإنسان في أحسن تقويم، وتنتهي هذه المرحلة في نهاية الشهر الثالث تقريبًا.

5- كساء العظام باللحم:

قال - تعالى :- ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ [المؤمنون: 14]، فهذه الآية تُشير إلى أن العظام تتشكّل أولاً، ثم يلتفّ حولها اللحم والعضلات كأنه كساء لها، وهذا التصوير الدقيق يشير إلى عظمة القرآن ودقته.

6- الخلق الآخر:

وفي هذه المرحلة يكون نفخ الروح، وتكون هذه النفخة بعد مرحلة العلقه نحو أربعة أشهر، فقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((إن أحدكم يُجمَع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل الملكُ فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أو سعيد))، قال - تعالى -: ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ﴾ [المؤمنون: 14]؛ أي خلقًا مبينًا للخلق الأوّل مبينة ما أبعدها؛ حيث جعله حيوانًا بعد أن كان جمادًا، وناطقًا وكان أبكم، وسميعًا وكان أصم، وبصيرًا وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره - بل كل عضو من أعضائه، بل كل جزء من أجزائه - عجائب فطرية، وغرائب حكمته، لا تُدرَك بوصف الواصف، ولا تبلغ بشرح الشارح. "...

ويستفاد تربويًا من دراسة أطوار الجنين في:

تتأبع هذه الأطوار طَوْرًا بعد طَوْرٍ، يشهد بوجود الله - سبحانه وتعالى - وبيان عظمتة - جل شأنه - وبديع صنعه.

كما أن نشأه هذه الأطوار وتتابعها بهذا النظام يدل على أن مقصود مدبر، ولا يمكن أن يكون مصادفة. الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - والسير على نهج القرآن، والتسليم والانقياد الكامل لله - سبحانه وتعالى. ذكر القرآن الكريم لهذه المراحل والأطوار بهذا التتابع، بعكس اهتمام القرآن الكريم بالإنسان عامّة، وبالطفل خاصّة.

مراحل نشأة الانسان في الحياة:

أولاً: **مرحلة المهد** ورد لفظ المهد في المعجم الوجيز بمعنى السرير يهياً للصبى ويوطأ لينام فيه، ومهد بمعنى "وطأ وسهّل المهد: اسم للمضجع الذي يهياً للصبى في رضاعه، وهو في يمهده الأصل مصدر مهده إذا بسطه وسوّاه"¹. ويقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} [مريم:29] "أي كيف تخيلنا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بيت مخض وزبده؟"². من خلال ذلك نرى أن مرحلة المهد تمتد منذ الولادة حتى الفطام أو هي مدة الرضاعة، حيث يُسَطُّ ويهياً للصبى فيها حتى يشد عوده ويستطيع الحركة والأكل مما على الأرض.

ثانياً: **مرحلة الصبأ:** من المهد إلى ما قبل البلوغ ورد لفظ الصبأ في المعجم الوجيز بمعنى الصغر والحدائث، وهو من "صبا فلان - صبوه" وصبوه بمعنى مال إلى الله وإليه حسن وتشوق. أما اسم الفاعل الصبى فهو الصغير دون الغلام، أو من لم يفطم بعد والصبية والصبيان هو الناشئ الذي يُدْرَب على المهنة بالعمل والمحاكاة. قال تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأْتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} [مريم:12]. قال صاحب الوسيط في تفسيره لهذه الآية: "يعني صبياً لم يبلغ الحلم.

ثالثاً: **مرحلة الفتوة** تمتد هذه المرحلة من الاحتلام حتى مرحلة الكهولة، وقد جاء في الوجيز الشباب: بين المراهقة والرجولة، والفتى: الشاب أول شبابه بين المراهقة والرجولة - والحادم. وفي القرآن الكريم {قَالَ لِقَتَاهُ أَتَيْنَا غَدَاءَنَا} [الكهف من الآية:62]. وقد قال الله سبحانه وتعالى: {إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [الكهف:10]، إذا أخذت أقوال المفسرين في الفتية ستجد أنها مرحلة الشباب أو ما بعد الاحتلام، فقد قال ابن كثير: "الفتية جمع فتى، جمع تكسير وهو من جموع الفتية ويدل لفظ الفتية على أنهم شباب لا شيب"، وفي تفسير الجلالين: "الفتية جمع فتى وهو الشباب الكامل".

¹ - (التفسير الوسيط؛ ج9، ص: [34]).

² - البداية والنهاية، ابن كثير، ج3، ص:331.

رابعاً: الكهولة يصير الفتى كهلاً عندما تكتمل قوته البدنية والعقلية؛ أي هي مرحلة الاكتمال والرشد، وفي المعجم الكهل: من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين. قال تعالى: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} يقول الإمام القرطبي الكهل: "بين حال الغلومة وحال الشيخوخة". وفي تفسير البغوي العرب تمدح الكهولة؛ لأنها الحالة الوسطى في استحكام السن واستحكام العقل وجحودة الرأي والتجربة، وقد أورد البغوي في تفسيره لهذه الآية قولاً لابن عباس، قال: "أرسله الله وهو ابن ثلاثين سنة، فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله إليه".

خامساً: الشيخوخة تمتد هذه المرحلة ما بين الكهولة والهرم، وفي الوجيز شاخ الإنسان - شَيْخًا، وشيخوخة: أسن. والشيخ: من ادرك الشيخوخة وهي غالباً عند الخمسين، وفوق الكهل ودون الهرم. بعد الانتهاء من هذه -مرحلة الكهولة- يدخل الإنسان في مرحلة جديدة من النمو، ومن الملاحظ أن الإنسان في هذه المرحلة يضعف عن القيام بما كان يقوم في المرحلة السابقة، ويستمر الضعف حتى يصل إلى الوفاة، وهذه من حكمة الله في خلقه أن كل شيء إذا تم يبدأ في الانتقاص من حيث بدأ، ويقول الله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى مِن قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [غافر:67]. وقال أيضاً: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [الأحقاف من الآية:150]، أي أن هذه المرحلة تبدأ بعد الأربعين.

سادساً: الهرم وقد ورد في الوجيز، هرم الرجل هرمًا: أي بلغ أقصى الكبر وضعف فهو هرم، يقول الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان): "قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}، يُبين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنهم بعد أن أنشأهم خلقاً آخر فأخرج الواحد منهم من بطن أمه صغيراً ثم يكون محتتماً ثم يكون شاباً ثم يكون كهلاً ثم يكون شيخاً ثم هرمًا أنهم كلهم صائرون إلى الموت من عمر منهم ومن لم يُعَمَّر". ويقول أيضاً الإمام بن كثير: "قال العفوي عن ابن عباس {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} يعني تنقله من حال إلى حال، أي خرج طفلاً ثم نشأ صغيراً ثم احتلم ثم صار شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرمًا". ومن الجدير بالذكر أنه ليس هناك حدوداً زمنية فاصلة بين هذه المرحلة، لأن هناك فروقاً وظروفاً ومؤثرات قد تختلف من فرداً لآخر ومن بيئة إلى أخرى كلاً حسب ما يسره الله له .

المستفاد تربوياً من دراسة أطوار خلق الإنسان:

1- أن هذا النسان الذي بدأ الله - تعالى - خلقه من طين وماء مهين، كَرَّمَهُ - سبحانه وتعالى - حيث جعل الملائكة العابدون الطائعون النورانيون الذين في طاعة دائمة لا يعصون الله ما أمرهم - يسجدون له سجود طاعه

الله لا سجد عباد لآدم، قال - تعالى :- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

وكذلك أخرج من رحمته من رفض السجود له، لذلك نهى العلماء أن يهان الإنسان، وأن يُضرب على وجهه حتى ولو كان لأجل التربية وتقويم السلوك، قال - تعالى :- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

2- خلق الله - تعالى - في عده أطوار؛ حيث أنشأه - سبحانه - بالتدرج طورًا بعد طور حتى صار في أحسن تقويم، وهو - جلَّ شأنه - قادر على أن يقول له كن، ولكنه - سبحانه وتعالى - اختار لنفسه سنة الإنشاء المتدرج، وهذه هي سنة الله - تعالى - في خلقه، ولذلك علينا أن نأخذ هذا التدرج بعين الاعتبار في تربيته الإنسان، وأن عملية التربية لا تأتي دفعة واحدة.

3- كانت قبضة التراب التي خُلِق منها آدم من جميع الأرض، لذلك خرجت ذريته متفرعة متنوعة مختلفة، منها الأسود والأبيض، والطويل والقصير، والصالح والطالح، وعلى هذا فإن هناك فروقاً فردية بين البشر جماعات وأفراداً، وعلى المرء أن يُؤعوا ويُعيروا من أساليبهم وطرقهم في التربية على حسب الحاجة.

4- الطاعة المطلقة لله - سبحانه وتعالى - والاستسلام والانقياد لأوامره - سبحانه وتعالى - وأن من سؤلت له نفسه الاعتراض وعدم المبادرة، فهو ملعون مطرود من رحمته - جل وعلا.

5- خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، قال - تعالى :- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]، والميعاد في ذلك هو الإيمان والعمل الصالح.

6- يتكوّن الإنسان من جزئين أساسيين جزء ملموس وجزء محسوس، وهما الجسد والروح، ولا بد أن يتم إشباع الجزئين، فكل منهما يؤثر ويتأثر بالآخر.

ثانياً: دلائل الأنفس في ما أنعم الله على الانسان وما سخر الله له في الحياة الدنيا من طعام وخلق سوي حتى يصل الى معرفة الله.

كرم الله تعالى الإنسان بتسخير الكون له، وتسخير ما فيها لمنفعته وتمكينه من دوره الذي خلقه من أجله، حيث سخر له ما هو أكبر منه خلقاً كالسماوات والأرضين، وأعظم منه جسماً كالأنعام، وغير هذا كثير ومختلف. وإن كل ما أوجد في هذا العالم فإنما أوجده لأجل الإنسان. كما قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ سورة إبراهيم. آية 32..

يقول الطبري¹ في تفسير هذه الآية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر وجبل وجماد وسفن لمنافعكم ومصالحكم ﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾ يقول تعالى ذكره: جميع ما ذكرت لكم أيها الناس من هذه النعم نعم عليكم من الله أنعم بها عليكم وفضل منه تفضل به عليكم وجميعها منه ومن نعمه فلا تجعلوا له في شرككم له شريكا بل أفردوه بالشكر والعبادة وأخلصوا له الألوهة فإنه لا إله لكم سواه². وقال الإمام الرازي³ في تفسير هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبة من النار، وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضاً حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها⁴.

وكرم الله تعالى الإنسان حين مهد له الأرض، وجعلها صالحة للحياة بما خصها الله تعالى بهم من هواء وماء وغير ذلك من أسباب الحياة. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾. سورة الملك. آية 15.

قال الإمام الشوكاني: «أي: سهلة لينة تستقرون عليها، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشى عليها»⁵.

قال ابن كثير: «يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك»⁶.

هكذا سخر له في السموات والأرض لخدمته. وأما ما ذكرناه هي مجرد أمثلة تؤكد ما ذهبنا إليه من أن الله تعالى يسر للإنسان سبيل حياته زماناً ومكاناً، وإلا فآيات التسخير كثيرة وفوائدها جمة.

ب: تكريم الإنسان بالجوارح والحواس:

1- هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ولد عام 224 بطبرستان كان أعلم الناس في زمانه وكان مجتهداً لا يقلد أحد وله مؤلفات منها: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تاريخ الأمم والملوك، توفي عام 310هـ انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير 8/134 وطبقات المفسرين لداودي 110/2.

2- جامع البيان عن تأويل أي القرآن، لابن جرير الطبري، 13/143، 144، دار الفكر. ط: 1405هـ، 1984م.

3- هو أبو عبد الله بن محمد بن عمر الحسين بن الحسن بن علي التميمي الطبرستاني الرازي الملقب بفخر الدين والمعروف بابن الخطيب الشافعي، ولد عام 544هـ كان إماماً في التفسير والعلوم العقلية وعلوم اللغة لقب بشيخ الإسلام وله مؤلفات عديدة منها: التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب، المطالب العالية، الحصول شرح الوجيز. توفي بجمرة عام 606هـ انظر وفيات الأعيان 4/248 - 252، البداية والنهاية 13/55 وطبقات المفسرين لداودي 215/2 - 218.

4- التفسير الكبير، لإمام فخر الدين الرازي، 12/55، دار الكتب العلمية. ط: الثانية 1425هـ، 2004م.

5- فتح القدير، لإمام الشوكاني، ص: 1771.

6- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ص: 1106.

لقد وضح لنا القرآن الكريم بأن الله تعالى خلق الإنسان على هذه الصورة البديعة وزوده بما ركب فيه من حواس وجوارح وغرائز وغير ذلك ليتمكن بكل هذه القوى من القيام بما وكل إليه من رعاية مسؤولياته وتكليفه. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ سورة التين. آية 4، قال الإمام النسفي: ¹ في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه²»

في تفسير هذه الآية: ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم. والله سبحانه أحسن كل شيء خلقه. فتخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب، وحسن التقويم، وحسن التعديل.. فيه فضل عناية بهذا المخلوق لذلك أبين فيما يلي حديث القرآن الكريم عن الحواس والجوارح التي وهبها الله تعالى للإنسان وزوده بها وكونها سبباً من أسباب المسؤولية.

ولذلك نجد القرآن الكريم في مقام التذكير الإنسان بنعم الله تعالى عليه يقول: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ سورة البلد. آية 9، وأمرنا بالصدق في القول بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ سورة الأحزاب. آية 70، وتوعد من يقول الكذب بلسانه ونهى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ سورة النحل. آية 116، ويقول مهددا أصحاب الإفك الذين افتروا الكذب على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها³: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ سورة النور. آية 15. وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن اللسان وما يتعلق به من أحكام بل جعل الله تعالى الألسن شاهدة على أصحابها يوم القيامة يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة النور. آية 24..

فتبين من كل ما سبق أن الحواس والجوارح التي زود الله تعالى في الإنسان من أسباب تكليفه ومن عوامل قيامه بتبعاته ومسؤولياته، فإنها القوى التي يتمكن بها من أداء التكاليف التي كلفها الله تعالى وحملها للإنسان، وبذلك يظهر رحمة الله تعالى بالإنسان حيث لم يحمله عسرا بل جعل الأمانة والمسؤولية والتي حمله إياها وأناط به رعايتها والقيام بها وفق طبيعته ومطابقة لتكوينه وخلقها.

1- هو أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي الفقيه الأصولي المفسر المتكلم صاحب كتاب (تفسير مدارك التنزيل) توفي سنة 710هـ انظر: الدرر الكامنة لابن حجر 2/247 وتاج التراجم ص 111.

2- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لإمام أبي البركات النسفي، 2/367، دار الفكر للطباعة والنشر.

3- هي أم المؤمنين عائشة بنت الصديق - رضي الله عنها - ولدت بمكة بعد المبعث بأربع أو خمس سنوات تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بنت ست كانت بليغة أدبية عالمة توفيت سنة 58هـ انظر: الإصابة 4/359 - 361 و الاستيعاب 4/356 - 361 وأسد الغابة في معرفة الصحابة 5/501.

المحاضرة الرابعة

الدرس الثاني

منهج القرآن الكريم في الاستدلال على عقيدة التوحيد والبعث والنبوات

-دراسة موضوعية-

مقدمة: لا شك أنه قد بذلت جهود حثيثة على مدار التاريخ الإسلامي في الرد على أهل الكتاب وإثبات فساد عقيدتهم والتحريف الذي في كتبهم، كان منها جهود العلامة ابن حزم في كتابه الرائع (الفصل في الملل والنحل) وكتاب العلامة رحمة الله هندي (إظهار الحق) وكتاب العلامة الشيخ أبو زهرة (محاضرات في النصرانية) ثم الجهود المباركة التي أحياها الشيخ أحمد ديدات ومن بعده خليفته الرائع الدكتور ذاكر نايك والذي هو ظاهرة فذة قلما تتكرر في الزمان ومع ذلك فيكاد يكون غير معروف في العالم العربي المسلم.

هذا غيض من فيض من جهود المسلمين الحثيثة في مخاطبة وجدال أهل الكتاب كما أمر الله تعالى:

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِهْنَاءُ وَإِهْنَاءُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (العنكبوت/46).

ولكن في المقابل لا نجد هناك جهوداً مشابحة قد توجهت لخطاب الكفار من الملحدين الذين ينكرون الخلق والبعث والحساب والأدريين الذين يشكون في الأمر ولا يوجد لديهم.. حسب زعمهم.. دليل يحسم مسألة

الإيمان والكفر. ولعل السبب في ذلك أن بعض المسلمين قد ظنوا أن هذا النوع من الكفر كان ممثلاً في كفار قريش ولم يعد له وجود في هذا الزمان.. ولكن الحقيقة أنهم مازالوا موجودين بل يقدر عددهم.. ويا للعجب.. بنحو نصف سكان الأرض.. بعضهم ملحدين (Atheists) وبعضهم شاكين أو لا أدرين (Agnostics) والتقدير المتداول لعددهم في دولة مثل الولايات المتحدة يبلغ نحو 10% من السكان علماً بأن بعض من ينتسبون بحسب ولادتهم إلا عائلات مسيحية أو يهودية هم في الحقيقة من أحد هذين النوعين وهم لا يخجلون من ذكر عقيدتهم إذا سئلوا عنها إعمالاً لحرية الفكر والعقيدة التي نشئوا عليها كما يزعمون. والدارس للشبهات الواهية لكلتا الطائفتين (الملحدين والأدرين) يجد أن هناك ملاحظات تتعلق بعقيدتهم والجدال معهم نذكرها فيما يأتي:

- 1- أنه لا فرق بين الشبهات التي أثاروها والشبهات التي كان يثيرها كفار مكة.
- 2- أنهم ليس لهم كتاب لتوضح لهم فسادهم ولا يؤمنون بكتابك لتستدل عليهم به. فليس هناك بديل عن محاججتهم بالأدلة العقلية.
- 3- أن القرآن الكريم قد ذكر عموم حججهم مع الرد العقلي عليها فهو خير معين على جدالهم بالأدلة الدامغة.

مفهوم المنهج لغةً:

قال تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]، وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: "لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ترككم على طريق ناهجة"، إن كلمة المنهاج والطريق الناهج تعني الطريق الواضح، ويعزز هذا المعنى ما جاء في المعجم الوسيط: أن أصل كلمة المنهج هو نهج، ويقال: نهج فلان الأمر نهجاً؛ أي: أبانه وأوضحه، ونهج الطريق: سلكه، والنَّهْجُ - بسكون الهاء -: سلك الطريق الواضح، أما ابن منظور في لسانه فقد أورد: أنهج الطريق: وضح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيناً، والمنهج عنده - بفتح الميم وكسرها - هو النهج والمنهاج؛ أي: الطريق الواضح والمستقيم.

وتقابل كلمة المنهج في اللغة الإنجليزية كلمة Curriculum، التي تعود إلى أصل لاتيني، هو Currere، التي تعني مضمار السباق؛ أي: هي المسار الذي يسلكه الإنسان لتحقيق هدف ما.

مفهوم المنهج اصطلاحاً:

تتعدد تعريفات المنهج من الناحية الاصطلاحية وتنوع، ويمكننا من خلال ما كتب بعض الباحثين في المناهج وطرق التدريس أن نحدد اتجاهات خمسة عامة على الأقل:

الاتجاه الأول: يتم التركيز فيه على وصف المحتوى (المادة الدراسية)، ولعل هذا التصور متأثر بمفهوم التربية اليونانية القديمة، حين ساد الاعتقاد بأن المعرفة تؤدي إلى تغيير السلوك، ويمكن تعريف المنهج - بناءً عليه - على أنه مجموعة المواد الدراسية Subject Matter، وهي التي يتولى المتخصصون إعدادها، والمعلمون تنفيذها وتدرسيها، وهذا ما نجده في Dictionary of Educatuion، الذي يعرف المنهج بأنه (سعادة، 2004: 32): "مجموعة المواد الدراسية أو المقررات اللازمة للتأهيل في مجال دراسي معين، مثل: منهج الرياضيات، ومنهج اللغات، ومنهج التربية

الاجتماعية، ومنهج العلوم وغيرها"، ومن تعاريفه أيضاً: أنه محتوى المقرر الدراسي؛ كأن يصف أحد المتخصصين في اللغة العربية، إذا ما سأله عن منهج النحو للصف الأول الثانوي، بأنه المنهج الذي يحتوي على الموضوعات المختلفة الآتية: الجملة الاسمية، والنواسخ، وإن وأحواتها، والجملة الفعلية، وأسماء الأفعال، والمنصوبات.. إلخ.

الاتجاه الثاني: يظهر فيه التركيز على وصف الموقف التعليمي من خلال اعتبار المنهج خبرة تربوية متنوعة المجالات، ويلتصق بحاجات المتعلمين، ويشبع رغباتهم وأحاسيسهم، وهو هنا جميع الوسائل التي يتم تنفيذها في المدرسة من أجل تزويد الطلاب بالفرص المناسبة للمرور بالخبرات المرغوب فيها، فقد قال المري Doll بأن (سعادة، 2004: 39) المنهج قد تغير تعريفه من مجموعة المواد الدراسية ومن محتوى المقرر الدراسي إلى جميع الخبرات التي يتم تقديمها للمتعلمين تحت إشراف المدرسة أو رعايتها أو توجيهها.

الاتجاه الثالث: يظهر فيه التركيز على وصف مخرجات العملية التعليمية Ends من خلال الجهد المركب الذي تخططه المدرسة، لنوجه تعلم الطلبة نحو مخرجات محددة سلفاً، (Tanner, 1980: 10) ويعتبر Johnson، M من أبرز المربين الذين أكدوا على أن المنهج المدرسي يتألف فقط من مجموعة من نواتج التعلم، التي نسعى إلى تحقيقها Intended Learning Outcomes، ويفهم من هذا أن الأهداف السلوكية تعتبر حجر الزاوية في قياس النتائج أو المخرجات النهائية.

الاتجاه الرابع: ركز فيه الباحثون في علم المناهج المدرسية على أنماط التفكير الإنساني، وبخاصة التفكير التأملي، والتفكير الاستقصائي المنظم، تلك الأفكار التي دخلت إلى الأدب التربوي من خلال كتابة المفكرين الكبار دونالد شون وجون ديوي (Tanner, 1980: 10)، وإذا ما تم الاتفاق على أن المنهج هو عبارة عن أنماط التفكير، فإنه يمكن تفسيره على أنه يتعدى كونه مجموعة من ميادين المعرفة الأساسية.

الاتجاه الخامس: يظهر فيه المنهج كنظام هو جزء من النظام التربوي، وهذا الاتجاه يحدد مفهوم المنهج ومكانته في النظام التربوي بشكل دقيق وشامل، والنظام هنا، (سعادة، 2004: 55) هو: مركب من مجموعة من العناصر التي ترتبط مع بعضها البعض بشكل وظيفي متكامل، وهذه العناصر حددها تايلر بأربعة، هي: الأهداف والمحتوى والتدريس والتقييم، ومما تقدم يمكن تعريف المنهج كنظام بأنه: نسق أو خطة من الخبرات التربوية المتلاحقة التي تسير وفق خطوات متسلسلة، بشكل فردي أو جماعي، وتتسع لتشمل أهداف المنهج، ومحتواه، وإستراتيجيات التدريس وأساليبه ووسائل التعليم والنشاط المدرسي وعملية التقييم.. إلخ.

المنهج العقلي في بيان العقيدة:

إنَّ المنهج العقلي الذي يسلكه القرآن الكريم في بيان العقيدة وغرسها في النفوس يأتي متسقاً مع المنهج الفطري ومتكاملاً معه؛ ولذلك فإنَّ القرآن الكريم لم يكن مقصوراً على مجرد الخير عن وجود الله تعالى ووحدانيته وسائر

أركان العقيدة، وإنما أقام البراهين العقلية التي بها تُعَلَّم العلوم الإلهية؛ فكان منهجه ومنهج جميع الأنبياء عليهم السلام الجمع بين الأدلة العقلية والسمعية الشرعية¹.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحُسْن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية، دَلَّ عليها القرآن وهدى الناس إليها؛ فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة... فإن هذا يعلمه الناس كلُّهم بعقولهم، فهو إذن عقلي؛ لأنه بالعقل تُعَلَّم صحته، وهو شرعي أيضاً²).

والإسلام يُوِّه تنويهاً كبيراً بالعقل ويُعلي من مكانته وقيمته؛ ونجد شاهداً على ذلك في الآيات القرآنية التي تنزَّلت بشأنه؛ فالعقل هو هبة الله للإنسان، ولذلك جعله الله تعالى سبباً للتكليف ومناطقاً للمسؤولية؛ وحثَّ على استعماله فيما حُلق له) أي العقل (وفي المجال الذي يستطيعه، ورسم له المنهج الصحيح للعمل والتفكير، وأحال عليه في القضايا الكبرى الرئيسية: كمعرفة الله تعالى ووحدانيته، وصحة النبوة، والبعث بعد الموت؛ فإن إدراك هذه القضايا إدراكاً كلياً عاماً إنما يكون بالعقل. وإن كان هذا لا يعني أن نجعل العقل حاكماً على مقررات الدين؛ فإن العقل من شأنه أن يتلقى عن الوحي، وأن يفهم ويدرك؛ فإن للعقول حدّاً تنتهي إليه لا سبيل لها إلى مجاوزته.

مجالات المنهج العقلي في تقرير الألوهية:

والقرآن الكريم يخاطب العقل ويُقنع الإنسان بالمنطق السهل المؤثر في النفس بأسلوب حي جذاب؛ حيث يوجِّه نظره إلى آيات الله في الكون والرزق والحياة والموت والأحداث الجارية كما سبق الحديث عنها في المنهج الفطري الوجداني، ولكنه مرة أخرى يعرض لها؛ وبأسلوب ومنهج عقلي يؤدي في النهاية إلى الغاية ذاتها، وهي إدراك حقيقة الألوهية وما يتفرع عنها من حقائق وقضايا الإيمان والعقيدة:

1- ففي مجال الألوهية:

يعرض القرآن الكريم آيات القدر والخلق، ومظاهر الموت والحياة، فيقول الله سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ خَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٥٧﴾ [الواقعة: 57 - 60].³

وقد تقدَّمت هذه الآيات الكريمة في المنهج الفطري؛ وهي كذلك مثلاً على المنهج العقلي؛ لما فيها من أسلوب منطقي يتصف بالحيوية؛ لما فيها من الأسئلة الموجهة إلى المخاطب والإجابة عنها إلى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة التي بُدئ بها لإيراد الدليل عليها، مع تعدُّد الأمثلة المأخوذة من حياة الإنسان وما يحيط به.

1- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (ج 9/ص 226، 227).

2- نظر: النبوات، لابن تيمية: (ص 48).

3- سورة الواقعة: 57-62.

ولو تأمل الإنسان بعقله وفكره آيات الله الماثورة في الأرض وفي النفس والآفاق، لأيقن بأن وراء هذه الآيات قدرة الله تعالى وأنها دليل على وحدانيته، فتجب طاعته، والالتزام بأمره ونهيهِ، وخلع ما يُعبد من دونه من الأنداد والشركاء. قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 20، 21].¹

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ عبر للموقنين إذا ساروا فيها من الجبال والبحار والأشجار والثمار وأنواع النبات. ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ آيات، إذ كانت نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما إلى أن نفخ فيها الروح. وقال عطاء عن ابن عباس: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع. وقال ابن الزبير²: يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من سبيلين. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (قال مقاتل) أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث³.

وبالأسلوب العقلي المنطقي تأتي أدلة الوحدانية، كقوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 21، 22] أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدر على شيء من ذلك. فكيف جعلوها لله ندا وعبدوها معه، ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات الأرض، فقال ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ أي: في السماء والأرض، ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91] وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: عما يقولون إن له ولدا أو شريكا، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويفكرون علوا كبيرا⁴.

والبراهين العقلية في القرآن ذات طريقة حيّة وبأسلوب يمكن أن تفهمه الخاصة والعامة؛ كلٌّ بقدر طاقته.

2- وفي مجال النبوات أيضاً:

يخاطب القرآن الكريم العقل، ويوجّهه إلى معرفة صدق النبيّ ومصدر القرآن، وأنه هو الوحي المنزّه عن الخطأ والاختلاف، فيقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82] اعلم أنه تعالى لما حكى عن المنافقين أنواع مكرهم وكيدهم، وكان كل ذلك لأجل أنهم ما كانوا

1- سورة الذاريات: 20-21.

2- عبد الله بن الزبير (73 هـ) عبد الله بن الزبير بن العوام، كنيته أبو بكر وأبو حبيب، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وكان أول مولود في الإسلام للمهاجرين بالمدينة. وهو أحد العبادة، وأحد الشجعان من الصحابة، وكان فارس قريش في زمانه وله مواقف مشهودة، شهد اليرموك وهو مراهق وفتح المغرب وغزو القسطنطينية. كان لا ينازع في ثلاثة: شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة. بويع بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين وحكم على الحجاز واليمن ومصر والعراق وخراسان وبعض الشام، قتل ابن الزبير في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين رحمه الله. (البداية والنهاية 8/ 332 - 345).

3- معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: 510هـ)، المحقق: حقه وخروج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1417 هـ - 1997م (ج 7 - ص 375).

4- تفسير بن كثير (ج 5 - ص 337).

يعتقدون كون الرسول محققاً في ادعاء الرسالة صادقاً فيه، بل كانوا يعتقدون أنه مفتر متخرف، فلا جرم أمرهم الله تعالى بالنظر والتفكير في الدلائل على صحة نبوته. فقال: أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فاحتج تعالى بالقرآن على صحة نبوته وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: التدبير والتدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها، ومنه قوله: إلام تدبروا أعجاز أمور قد ولت صدورها، ويقال في فصيح الكلام: لو استقبلت من أمري ما استدبرت، أي لو عرفت في صدر أمري ما عرفت من عاقبته.

المسألة الثانية: اعلم أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى احتج بالقرآن على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لو تحمل الآية على ذلك لم يبق لها تعلق بما قبلها البتة، والعلماء قالوا: دلالة القرآن على صدق محمد صلى الله عليه وسلم من ثلاثة أوجه: أحدها: فصاحته، وثانيها: اشتماله على الإخبار عن الغيوب، والثالث: سلامته عن الاختلاف، وهذا هو المذكور في هذه الآية¹.

فسلامة القرآن من الاختلاف والتناقض، مع سلامته في الأسلوب الذي يجري على منهج واحد، دليلٌ عقليٌّ على أنه من عند الله تعالى؛ فلو كان من عند غير الله لظهر فيه ذلك التفاوت.

3- وفي السمعيات:

يقيم القرآن الكريم الدليلَ العقليَّ على البعث والحساب؛ فإن العقل يمنع أن تكون الحياة عبثاً؛ وأن يُترك الإنسان سدىً دون تكليف ولا محاسبة ولا جزاء يفرق فيه بين المؤمن والكافر، وبين التقى والعاصي الفاجر، فيقول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّؤُوسَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: 36 - 40] [أيظنُّ هذا الإنسان المنكر للبعث أن يُترك هملاً لا يُؤمر ولا يُنهي، ولا يحاسب ولا يعاقب؟ ألم يك هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين يراق ويصب في الأرحام، ثم صار قطعة من دم جامد، فخلقه الله بقدرته وسوى صورته في أحسن تقويم؟ فجعل من هذا الإنسان الصنفين: الذكر والأنثى، أليس ذلك الإله الخالق لهذه الأشياء بقادر على إعادة الخلق بعد فناءهم؟ بلى إنه - سبحانه وتعالى - لقادر على ذلك².

والذي ينبغي أن نُلمح إليه في آخر كلامنا عن المنهج العقلي: أن الإسلام بيّن للعقل الطريق الذي ينبغي أن يسير فيه حين يريد النظر في مسألة بعينها؛ والطرائق مختلفة والأساليب متعددة؛ ولكل مسألة من المسائل ما يناسبها من طرائق النظر وأساليب الفكر.

فإذا كان موضوع النظر هو مسائل الألوهية، فإن العقل أمامه طريقتان:

1- مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ، (ج 10 - ص 151).

2- التفسير الميسر (ج 1 - ص 578).

أحدهما: أن ينظر في الكون ويتأمله ليستنتج من ذلك أن له موجدًا، ثم ينظر في تناسق هذا الكون وانسجامه ليعلم أن موجدَه واحد عالم حكيم خبير .

والطريق الثاني: أن ينصت إلى هذا الإله الذي آمن به حينما يتحدث عما يجب وعما يجوز وما يستحيل على هذا الإله من أسماء وصفات.

أما حين يكون الحديث في مجال النبوة - مثلاً - فإن الإسلام يوجّه العقلَ وِجْهَةً أُخْرَى، فيطالبه بالنظر في إثبات دعوى النبوة من جهات ثلاث:

الأولى: النظر في تاريخ مدعي النبوة، والثانية: فيما جاء به هذا النبي صلى الله عليه وسلم من العقائد والشرائع.

والثالثة: أن ينظر فيما ادّعه من الخوارق والمعجزات¹.

وأخيراً: فإن هناك توازناً واتساقاً بين هذا المنهج العقلي والمنهج الفطري السابق؛ وهذا أيضاً يمكن أن يكون منهجاً آخر؛ فنقول: إن القرآن يسلك منهجاً عقلياً ووجدانياً في الوقت نفسه لبيان حقائق العقيدة والإيمان.

بعد هذه اللمحات السريعة، يحسن أن نختم هذه المقالة بكلمات عن مميزات المنهج القرآني في عرض العقيدة الإسلامية:

مميزات هذا المنهج:

أولاً: بكونه يعرض الحقيقة كما هي في عالم الواقع، بالأسلوب الذي يكشف كل زواياها وكل جوانبها وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها، وهو مع هذا الشمول لا يعقّد هذه الحقيقة ولا يلقّنها بالضباب، بل يخاطب بها الكينونة البش-رية في كل مستوياتها .

وثانياً: بكونه مبرأً من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات العلمية والتأملات الفلسفية؛ فهو لا يُفرد كل جانب من جوانب الكل الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البش-رية؛ وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يستحيل مجاراته أو تقليده.

وثالثاً: بكونه مع تماسك جوانب الحقيقة وتناسقها، يحافظ تماماً على إعطاء كلّ جانب من جوانبها مساحته، التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله؛ وهو الميزان، كما أنّ هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض في التصور الإسلامي.

ورابعاً: بتلك الحيوية الدافقة الموحية، مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم؛ وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا الأسلوب البشري في التعبير. ثم هي في الوقت ذاته

1- انظر: عقيدتنا وصلّتها بالكون، د. طه الدسوقي: (ص 110 - 113).

تُعْرَضُ في دقة عجيبة، وتحديد حاسم؛ ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة¹.

2- ويحسُن في هذا المقام التأكيد على: وجوب دراسة مباحث العقيدة والإيمان وما يتصل بها دراسة موضوعية من القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، بطريقة تتناسب مع المخاطبين في هذا العصر من حيث طريقتهم في التفكير وأسلوبهم في التعبير، مع المحافظة على المفاهيم الإسلامية، دون انتقاص أو تحريف.

ولذلك ينبغي أن نشير أيضاً إلى القضايا الفكرية والعقدية التي تطفو على الساحة اليوم، ومن ثمّ دراستها بأسلوب يتفق مع روح العصر، ويستفيد من مقررات العلوم القطعية ونتائجها، دون مجافاة لروح النصوص الشرعية الصريحة الصحيحة؛ إذ إن صحيح المنقول يتفق مع صريح المعقول.

ونورد هنا الأدلة العقلية التي ساقها القرآن الكريم للرد على ثلاثة مسائل هي في الحقيقة جوهر العقيدة ألا وهي مسائل الخلق والوحدانية والبعث. ونورد فيه المباحث الآتية:

أولاً: أدلة الخلق

ينكر الملحدون أن هناك خالقاً قد خلقهم، ويتوقف اللادريين في المسألة ويدعون أن الأمر محتمل ولكن لا يوجد دليل يحسم المسألة، والله تعالى يرد على هؤلاء وأولئك بقوله تعالى في آية جامعة معجزة:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفَنُونَ) (الطور/35-36)

ثلاث حجج عقلية يواجه بها القرآن الكريم كلتا الطائفتين فيخبرهم بينها جميعاً:

1- هل خُلِقْتُمْ من لا شيء، وهل يمكن إعطاء مثال على شيء في الوجود وجد من لا شيء. إن هذا أصلاً بخلاف قوانين الكون التي نحيا عليه.

2- هل أنتم خالقون لأنفسكم.

3- هل أنتم الذين خلقتكم السموات والأرض.

إن العقل السليم لا يستطيع بحال أن يجيب بإجابة تحالف النفي (لا) على الأسئلة الثلاثة. فإن لم تكن خُلِقْتُمْ من لا شيء، ولا أنت الذي خلقت نفسك، ولا أنت الذي خلق السموات والأرض، فإن هناك خالقاً لهذا الكون، أظهر لنا في جميل صنعته كمال قدرته، وخلق الكون على بناء واحد ليقر بوحدانيته، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لنعرفه بأسمائه وصفاته، وتودد إلينا وهو الغني عنا، وأخبرنا بفرحه بنا إن عصينا فتبنا فأنبنا، فهل نرغب عن هذا الرب الخالق البارئ المصور ونحيا في أوهام الخيالات لنصحو على الحسرة والندم.

ثانياً: أدلة وحدانية الله تعالى

1- انظر: تفصيل ذلك في كتاب: مقومات التصور الإسلامي: سيد قطب (ص 65 / 68).

إن الخالق الكريم الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد قد رد في كتابه العظيم رداً حاسماً ينير العقول ويأخذ بالألباب على من أدعى أن هناك آلهة غير الله تعالى لها في الكون نصيب وفي تدبيره منزلة، وذلك من وجهين:

الأول: أن من يدعي ذلك عليه أن يأتي بالدليل، وهيهات قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) (فاطر/40).

فهي دعوى بلا برهان، وطلب البرهان من المخالف هي قاعدة قرآنية مضطردة يجب إتباعها مع أصحاب الدعاوى.

والثاني: هو دعوة أصحاب العقول السليمة إلى تصور نتيجة هذا الزعم الفاسد:

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (الأنبياء/22)

ولك أن تقلب الأمر على كل وجه في هذا الكون لترى ببصيرتك صور هذا الفساد لو ادعينا جدلاً حدوث هذا الفرض المستحيل.

والجميل أنه كلما تقدم الإنسان في العلم، ظهرت دلائل جديدة للوحدانية، وكأن لهذه الصفة الجليلة طابعاً يطبع كل ذرات الكون وكل خلايا المخلوقات الحية بخاتم التوحيد. ألسنا نرى الوحدانية في قوانين علوم الحياة سواء في قوانين الخلية أو قوانين المادة الوراثية كذلك في قوانين الفيزياء من الذرة إلى المجرة.

ففي قوانين علم الحياة: بنيت جميع الكائنات الحية على قاعدة الخلية وبنيت جميع المادة الوراثية من أربعة أحرف حتى بات العلماء ينقلون الجينات من نبات إلى آخر أو حتى من نبات إلى حيوان؟ وما ذلك إلا لأن الخالق واحد.

وفي قوانين الفيزياء: كل ذرات الكون قد بنيت على نسق واحد. من أبسط الذرات التي يدور فيها إلكترون واحد حول بروتون واحد إلى أثقل الذرات المعروفة وكل قوانين الفيزياء ثابتة على امتداد الكون حتى بات من الممكن حساب كل مسألة في الكون بنفس القوانين.

ويزداد الأمر وضوحاً حين يضرب الله تعالى المثل (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (الزمر/29)

ماذا لو كان إله الشمس غير إله الأرض، وحاشا لله، فأقام لها قوانين لا نفهمها أو بدل اليوم لها قانون غير قانون الأمس، ألم تكن الحياة على الأرض لتضطرب ثم تنعدم، وهل يترك خالق الأرض خالق الشمس يعبث بأهل الأرض أم يتقاتل الجبابرة فيهلك الخلق مثل خرافات وأساطير آلهة اليونان في القديم. وكيف كان لخالق الأرض أن

يقول في كتابه لأهل الأرض (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) (الرحمن/5) إن لم يكن له الخلق والأمر وليس معه في الكون شريك ولا نصير. ولذلك فقد نفى الله تعالى كل شبهه في هذه الآية المعجزة:

رب الأرض يطالب بعبادتك له بحق أنه خلقك ورزقك وسخر لك ما في الأرض جميعاً، ورب الشمس يطلب منك عبادته أكثر من رب الأرض لأنه لو حرمتك ضوء الشمس لهلكت. أرايت نعمة التوحيد ونعمة أن الله واحد لا شريك له في خلقه ولا في ملكه (الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون)(العنكبوت/63).

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (الرعد/16).

ثالثاً: أدلة البعث في القرآن الكريم

لا شك أن التكذيب بالبعث كان من أكثر الشبهات لدى الكافرين ومن أشد العقبات التي واجهها الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة الإسلامية.. وكان للكفار مواقف متباينة من هذا الأمر العظيم حالت بينهم وبين الإسلام، ولهذا فقد أطال القرآن الكريم في الرد عليهم وإثبات حتمية القيامة.. وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم لإقامة الحجة على المخالفين.. فإذا استحضرننا ما سبق ذكره من أن أكثر من نصف سكان الأرض الآن لا يؤمنون بالبعث ولا حساب، علمنا مدى أهمية دراسة منهج القرآن الكريم في إثبات حتمية البعث ومحاولة تدبر هذه الآيات الكريمة لتقييم عليهم الحجة، ولعل الله تعالى أن يهدي بنا رجلاً واحداً فنفوز في الدنيا والآخرة. ولأن القرآن الكريم قد أطال في بيان هذه المسألة، فسنتناولها بشيء من التفصيل، وسنبداً بإذن الله ببيان موقف الكفار من قضية البعث وأسبابه ثم نوضح الدلائل التي ساقها القرآن الكريم لحسم هذه القضية من الناحية العقلية.

أولاً: مواقف الكافرين من البعث منذ زمن التنزيل:

موقف الكافرين من البعث كان دائماً هو الإنكار والتعجب والتكذيب.

(ق) وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (ق / 1 - 3).

ثانياً: أسباب موقف الكافرين

1- الشهوة وحب التمتع بملذات الدنيا بلا رقيب ولا حسيب:

(وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (الأنعام/29)

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (المؤمنون/ 37)

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ). (الجنائفة/24)

إن هذا الخلق العظيم يحمل دلالة طلاقة قدرة الله تعالى الذي لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء.

4- التقليد الأعمى للأمم الكافرة التي سبقتهم:

قال تعالى: (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (المؤمنون: آية 81-83).

إنه التقليد المذموم من كل وجه، والذي قام على غير دليل ولا برهان ولا كتاب مبین.

5- الجدل باستحالة جمع أجزاء الإنسان بعد تحللها وتشتتها في باطن الأرض:

يدعي المجادلون أن الأجسام بعد موتها تتحلل إلى مكوناتها الأساسية التي قد تغيب في باطن الأرض أو تدخل في تركيب نبات يعود ليأكله حيوان.. إلى آخر تلك السلسلة الجدلية التي قد يفترضها المعاندون المكذبون فيستحيل جمع ذلك المتناثر من عهد آدم إلى قيام الساعة في زعمهم (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (الرعد/5).

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) (سبأ/7)

أي إذا تحللت أجسامنا وتاهت دقائقها في غيابات الأرض، فكيف تجمع لنبعث من جديد؟

والله تعالى يرد عليهم بدليل علمه المحيط سبحانه فيقول تعالى: (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) (ق/4).

ثالثاً: أدلة القرآن الكريم على البعث:

1- دليل عدم عبثية الخلق:

قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} (المؤمنون / 115).

هذا دليل عقلي.. إن هذا الخلق العظيم لا يمكن أن يكون عبث.. فكيف تكون نهايته إلى تراب.. فيتساوى الصالح والطالح.. القاتل والقاتل.. الظالم والمظلوم.. فيكون الأمر عبث.. بل ويكون مدعاة للفساد في الأرض.. إن عدم العبثية في الخلق تستوجب أن تكون هناك قيامة يحاسب فيها الناس على أعمالهم. أنظر إلى أي جهاز من أجهزة الجسم لتجده ليس بعبث، انظر إلى المخ البشري كيف خلق الله فيه مائة وعشرين مليار خلية عصبية ترتبط كل خلية في المتوسط بنحو عشرة آلاف خلية أخرى في ترابط معجز ليتم الشعور بالإبصار والسمع والشم واللمس وكذلك لتكون هناك قدرة على الكلام والحركة والتفكير والإدراك وتخزين ملايين الكلمات والصور والأسماء والأماكن والروائح والقدرة على تذكرها فور رؤيتها ولو بعد سنين، ومن الناس من يُسَخَّرُ ذلك العطاء المبهر في الطاعة ومنهم من يسخره في المعاصي.. منهم الأنبياء والصديقين والشهداء وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي.. ومنهم هتلر وقارون وهامان.. ثم بعد ذلك يموت الإنسان، وينتهي الأمر، فيتساوي الأخير والفجار!؟ أليس هذا

عبث؟ لقد شنع الله تعالى على من هذا ظنه، قال تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (الجنائفة آفة 31).
وقال تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) (السجدة آفة 18).
وقال تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) (القيامة / 36).

أي يترك هملًا وهو الذي خلقه الله تعالى بعنايته منذ كان نطفة فعلاقة ثم سواه الله تعالى فجعل منه الذكر والأنثى، فإذا كان منذ بداية حياته في عناية الله ورعايته، فكيف يهمل في آخرها؟

وعقب الله تعالى على هذه الآفة الكريمة {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} (المؤمنون / 115).
بهذا التعقيب الرائع في قوله سبحانه (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (المؤمنون / 116).

2- دليل الخلق الأول:

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم/27).

إن الذي يخلق شيئاً أول مرة يقدر على إعادته.. بل هو على إعادته أقدر. وكل عليه هين سبحانه..

وقال تعالى في الرد على المكذب المعاند:

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس/78)، أي لم يعتبر بخلق الله تعالى له على قدرته على إعادته بعد موته.

لقد استحضر القرآن الكريم سؤال من يشك في البعث (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ) وجعل الإجابة هو الواقع الذي لا يملك أحد إنكاره من مراحل الخلق المعجز في الأرحام (فإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَجْرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّكُمْ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) وتبعها بمراحل حياة الإنسان في هذه الأرض (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) ويختتم الآية بهذا التقرير الحاسم (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ). فلا حجة لمعاند أن يتبرأ من دليل يحمله في نفسه من يوم خلق إلى يوم يموت يشهد الله بأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير.

3- دليل قدرة الله تعالى في خلق الإنسان:

قال تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) (القيامة/3-4)

إن الناظر في عجب صنع الله في كل جزء من أجزاء الجسم البشري، لا بد وأن يقر لله تعالى بكمال القدرة وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير.

4- دليل إخراج الحي من الميت والميت من الحي :

قال تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ) (الروم/19).

في الآية دليلان، نتعامل أولاً مع الأول منهما وهو إخراج الحي من الميت والميت من الحي: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ). كإخراج الجنين الحي من داخل القشرة الصماء الميتة لبيض الكثير من الكائنات، وإخراج الأشجار والأزهار من حبة صماء لا يبدو عليها أثر الحياة. فهذه الأمور العجيبة تظهر طلاقة القدرة الإلهية وهي دليل عقلي للمتأمل على البعث بعد الموت ولذلك قال تعالى في نهاية الآية الكريمة (وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ)

5- دليل إحياء الأرض الميتة بعد موتها:

قال تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ) (الروم/19) قد يعتبر البعض أن الآية تحمل دليلاً واحداً ولكنهما تحمل دليلان إذ الواو في قوله تعالى (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) للمغايرة بين ما قبلها وما بعدها، وهذه الآية المبهمة، وهي إحياء الأرض بعد موتها، ساقها القرآن الكريم مرة بعد مرة للدليل على البعث بعد الموت، فكما كان التعقيب في نهاية هذه الآية بقوله تعالى (وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ) فقد عرض الله تعالى هذا الدليل في قوله تعالى في سورة الحج آية 5/7.

6- دليل خلق السموات والأرض:

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَالًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء / 97-99).

وقال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (غافر/57)

لما أخبرنا الله تعالى أن خلق السموات والأرض أكبر من خلقنا، فلا عجب أن يقدر على أن يخلق مثلهم أو يعيد خلقنا أو أن يفعل في ملكه ما يشاء.

7- دليل التاريخ في قصص القرآن الكريم عن أماتهم الله ثم أحياهم في هذه الدنيا:

وهي خمس قصص كلها في سورة البقرة:

1- عقاب الله تعالى لبني إسرائيل على طلبهم رؤية ذاته تعالى بالموت ثم بعثهم بعد ذلك:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة/ 54-55).

2- قصة البقرة التي أحيها الله لهم ببعضها القتل بعد موته:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالَوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ، قَالَوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ، قَالَوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) (البقرة/ 68-71)

3- قصة الملائكة من بني اسرائيل الذين خرجوا من ديارهم مخافة الموت فأماهم الله تعالى ثم بعثهم بعد ذلك:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (البقرة/ 243)

4- قصة عزيز الذي مر بالقرية وتساءل كيف يحييها الله تعالى:

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة/ 359).

5- قصة طير إبراهيم:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَّلْتُمْ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطَمِّنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة: آية 360)

دروس مستفادة من أدلة البعث في القرآن الكريم:

1- المتأمل في الأدلة التي ساقها القرآن الكريم في قضية البعث يجد أن واحد منها فقط.. وهو الخاص بالقصص القرآني.. هو الذي يمكن أن يرفضها الملحد، لأنه لا يؤمن ابتداءً بالقرآن الكريم فكيف يؤمن بما جاء فيه من أخبار عن أقوام سابقين هي من أنباء الغيب قال تعالى (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود/ 49). ولهذا فالمؤمنون بالكتاب العزيز هم فقط الذين ينتفعون بهذا القصص القرآني فيكون إيمانهم بالغيب سبباً في انتفاعهم بمداية القرآن الكريم قال تعالى: (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (البقرة/ 1-3)

2- عموم الأدلة التي ساقها القرآن الكريم. هي أدلة عقلية.. وليست نصوصاً أو أخباراً. بل هي من باب الجمع بين الشيء ولازمه.

• فلازم عدم عبثية الخلق وجوب القيامة، وقوله تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون/ 115) أسلوب استنكار على من يظن غير ذلك.

- ولازم أن الله هو الذي خلقنا أول مرة أنه قادر على إعادتنا، فإقرار الناس لا يختلف على أن إعادة صنع الشيء أهون على الصانع من صنعه أول مرة، فكيف بالله أحسن الخالقين.
- ولازم أن الله تعالى خلقنا في هذه الصنعة المبهرة هو قدرته على إعادة خلقنا متى شاء وكيف شاء.
- ولازم أن الله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي قدرته تعالى على إخراجنا أحياء من الأرض الميتة.
- ولازم أن الله تعالى يخلق النبات الحي في الأرض الميتة إذا نزل عليها الماء، هو قدرته سبحانه على أن يخرج الإنسان حيا من باطن الأرض الميتة، بل ويحمل مع هذا صورة تقريبية عن (كيفية) هذا الإخراج بدليل قوله تعالى (وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ).
- ولازم أن الله تعالى خلق ما هو أعظم من خلق الإنسان وهو السموات والأرض، هو قدرته سبحانه على أن يتصرف بمن هو أقل من ذلك شأناً في الخلق - وهو الإنسان - مختلف أنواع التصرف من الخلق والإماتة والبعث.
- 3- تنوعت أساليب القرآن الكريم بسطاً لأنوار أدلته لتناسب حالات الظلمة المتنوعة التي يجيها المكذبين بالبعث.. فما زال الناس - على تقدم حضارتهم المادية - على حال المكذبين في زمن التنزيل. فمنهم المؤمن بخلق الله له ولكن لا يؤمن بالبعث والحساب، ومنهم المكذب بالخلق والبعث جميعاً، ومنهم الشاك الذي لا ينكر إمكان الخلق والبعث ولكنه لا يرى - حسب فهمه - دليلاً قاطعاً على ذلك فيريح عن نفسه تبعة التكليف. فتنوعت الأساليب في القرآن الكريم مثلما تنوعت الأدلة:
- فأحياناً يعرض القرآن الكريم مسألة ثم يعقب عليها للتنبيه أنها دليل على البعث كقوله تعالى (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ) (القيامة/40).
- وأحياناً يعرض القضية ابتداءً ثم يجيب عليها بعرض الأدلة كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ). (الحج/ 5)
- وأحياناً يتعجب من قولهم (وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَلْمِزْكُمْ بِهِ) (الرعد/ 5).
- وأحياناً يهدد ويتوحد عسى أن يفيق الغافل ويتنبه المعرض (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) (يس/63-64).
- 4- احتلت حقائق الخلق في علم الأجنة وجسم الإنسان والكون واسطة العقد في الدلائل التي ساقها القرآن الكريم على البعث.. ففي علم الأجنة يقول تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس/ 77-79). وفي بديع خلقه في دقائق جسمه يقول تعالى (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) (القيامة/ 3-4) وفي عظيم خلق الله تعالى في كونه يقول تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء / 97-99).

5- إن الغرور بالباطل في مجال العلم والعقل هي سمة لأولئك المعاندين، كما أن الجدل هو سمتهم الملازم، لذلك، فمع أهمية القيام بواجب الدعوة، إلا أنه يجب ألا يتصدى لهم إلا الراسخون في العلم، حيث سيرمونه بوابل من الشبهات التي لا تنتهي إلا أن يشاء الله. وحذا لو كان هذا التصدي من جانب هيئات فإن كان ولا بد، فأفراد ممن عاشوا معهم وخالطوهم وعلموا حقيقتهم الخاوية. (لَيْهَلِكُ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَحَيْثُ مَا كَانُوا إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال/42).

إثبات النبوات:

أنكر خصوم الدعوة المحمدية من قريش نبوة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، ومع أن فتح مكة وانتصار الإسلام قد جعلاً حداً نهائياً لذلك، فإن اتساع رقعة الدولة الإسلامية وامتدادها شرقاً إلى حدود الصين، وغرباً إلى المحيط الأطلسي، وتدفق "الملل والنحل" على المجتمع العربي الإسلامي في العصر العباسي الأول خاصة... قد فتح المجال واسعاً لمختلف المذاهب والفرق غير الإسلامية، وكان من بينها أولئك الذين تأثروا بآراء البراهمة من الهند الذين ينكرون النبوات. واشتهر في هذا المجال ابن الراوندي المتوفى حوالي منتصف القرن الثالث، والذي تنسب إليه مصادرها رسالة سماها "الزمردة"، نقل فيها آراء البراهمة من الهند في إنكار النبوات.

ويبدو أن هذا الكتاب قد لقي انتشاراً واهتماماً كبيرين، إذ تصدى للرد عليه كثيرون، كما أُلّف في إثبات النبوات فلاسفة إسماعيليون وغيرهم من الشيعة - ومعلوم أن المذهب الشيعي يقوم على الإمامة والولاية، وأساسهما النبوة. أما الفارابي فقد صاغ نظرية فلسفية تفسر ظاهرة النبوة بالمقارنة مع وضعية الفيلسوف. ومع ذلك يبدو أن آراء البراهمة في إنكار النبوات قد انتشرت في القرن الثالث خصوصاً وبقيت حية في المجتمع الإسلامي حتى القرنين الخامس والسادس، وقد تصدى للرد عليها كبار المتكلمين أمثال الشهرستاني والباقلاني من الأشاعرة، والقاضي عبدالجبار من المعتزلة،

يتميز منهج المتكلم/ الفيلسوف الأشعري أبي الفتح محمد عبدالكريم الشهرستاني (479- 548هـ) بإيراد آراء الخصوم بكل أمانة وموضوعية ثم الرد عليها ومقارنتها بحجة العقل، يلي ذلك شرح مذهب الإسلام في القضايا المطروحة باعتماد صريح العقل وصحيح النقل، شأنه في ذلك شأن كبار علماء الإسلام، أمثال القاضي عبدالجبار المعتزلي، وابن رشد الفيلسوف، وابن تيمية الحنبلي... الخ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رآئته إثبات النبوات:- (ليست المعجزة هي الشرط الأوحد للنبوة فمدعي النبوة إما أن يكون أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ولا يُلبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين وقد أسلم السابقون الأولون أمثال أبي بكر الصديق وخديجة والميشترون قبل انشقاق القمر والإخبار بالغيب والتحدي بالقرآن. (ويقول رحمه الله:-) وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة..وموسى ابن عمران لما جاء إلى مصر وقال لهم إن الله أرسلني علموا صدقه قبل أن يُظهر لهم الآيات.. وكذلك النبي لما ذكر حاله لخديجة وذهبت به إلى ورقة ابن نوفل.. قال هذا هو الناموس الذي يأتي موسى.. وكذلك النجاشي.. وأبو بكر علموا صدقه علماً ضرورياً لما أخبرهم بما جاء به وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علماً ضرورياً بأنه

صديق.. وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقتزن به قرائن يُعرف بها صدقه بالضرورة فكيف بمن عُرف بصدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا مَنْ هو أصدق الناس أو أكذبهم وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني (1)) (يقول الأستاذ علي عزت بيغوفيتش:- (والقراءة المتأنية للأديان تُشعر أن هناك اتفاقاً مُسبقاً تم في مكان ما بين موسى وعيسى ومحمد) أو بتعبير النجاشي:- إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وفي تصنيف هيجل للأديان اعتبر الإسلام استمراراً لليهودية وقالت مرسيا إيلادي إن محمدا يقف على حافة سيادة المسيحية وبداية العصر العلماني الحديث بمعنى أنه يقف في النقطة البؤرية للتوازن التاريخي. فالنبي محمد يأتي على مفترق طريق التحول من المرحلة الثانية إلى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل التحول الروحي للجنس البشري وهذا ما قالت مرسيا إيلادي في كتابها أنماط الأديان المقارنة فالأنبياء ولا جدال قاموا بدور رئيس في تاريخ الإنسانية ومن خلال الأنبياء فحسب أصبح الإنسان محورا للتاريخ... ومن خلال الأنبياء فحسب تأكد سمو الإنسان وقيمه ومركزته ومنهج القرآن في إثبات النبوات هو أعظم المناهج وأنقاهها بعيدا عن الطُرق الكلامية والفلسفية التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع ولذا يعترف الرازي في آخر مصنفاته قائلا:- لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ومن جَرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية ديانا أذى ووبال ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا².

وكما استخدم القرآن في إثبات وجود الله دليل العناية ودليل القصد ودليل الإختراع ودليل السببية³ وهي الأدلة السهلة الممتعة التي لا تُقيم بعدها قولاً لقائل فقد استخدم القرآن دليل التحدي ودليل المقارنة ودليل الإخبار بالغيب ودليل خرق العادة وغيرها من الأدلة في إثبات النبوات مما هو مبسوط في مواضعه وقيل أن يبدأ التحدي لا بد أن يمتلك القوم الذين أرسل فيهم النبي ناصية ما يتحداهم بهم ويكونون فيه المرجع بل والحكم حتى إذا ما انتصر عليهم كانوا هم الحاكمين على أنفسهم بالخيبة ولما سمع الوليد ابن المغيرة من النبي قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } النحل 90 قال:- والله إن له لحلاوه وإن عليه لطلاوه وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بقول بشر. فقد رق قلبه وقال والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا.. يقول دكتور محمد دراز:- (القرآن إذن صريح في أنه لا صنعة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ولا لأحد من الخلق وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه ومن العجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الإستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة وهو أنه ليس من عند محمد في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيا يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه وأي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة أي مصلحة له كي ينسب بضاعته لغيره ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه ويزعمها لنفسه.. بل

1- ثبوت النبوات عقلا ونقلا ص 573.... شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د. محمد يسري سلامه دار ابن الجوزي

2- المرجع السابق ص 318.

3- قام الشيخ نديم الجسر رحمه الله ببسط هذه الأدلة وشرحها بالتفصيل في كتابه الرائع قصة الإيمان.

وشهد الرسول على نفسه بالعجز { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {يونس(16)}¹.

ودعوة الأنبياء واحدة ومنهجهم واحد وسبيلهم واحد { مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ } (43) سورة
فصلت.. غاية دعوتهم أن { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } (59) سورة الأعراف.. غاية دعوتهم (اسمع يا
اسرائيل اعظم الوصايا الرب الهنا رب واحد)² أو بلفظ القرآن { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } فالإسلام
هو أنقى أديان التوحيد كما يقول جوستاف لوبون والنبوة لا يقول بها إلا أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين
ولا يُلبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين كما قال شيخ الإسلام رحمه الله.

المحاضرة الخامسة

الجدل في القرآن الكريم

نوح-ابراهيم-موسى

¹ - محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم ص 21

² - مرقص 12-29.

تعريف الجدل في اللغة والاصطلاح:

لغة: في الأصل اللغوي لمادة (جدل) استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة، ومراجعة الكلام. و(الجدال) المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة¹، وأصله من جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله. وجدلت البناء: أحكمته، ودرع مجدولة: المحكمة العمل. ويقال: جدل الحُبُّ في سنبله: قوي. والأجدل: الصقر المحكم البنية. والمجدل: القصر المحكم البناء، ومنه: الجدل، فكأن المتجادلين يقتل كل واحد الآخر عن رأيه. وقيل: الأصل في الجدل: الصراع وإسقاط الخصم صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة.

وقد ورد لفظ الجدل واشتقاقاته في القرآن الكريم تسعا وعشرين مرة:

منها الفعل (جادل) بأزمته الثلاثة، والمصدر (الجدال)، و(الجدل)، ويبدو من توزيع ورود هذه المشتقات على السور القرآنية، أن مفهوم الجدل مفهوم مكّي أكثر منه مدني، إذ ورد في السور المكية عشرين مرة، وفي السور المدنية تسع مرات.

وفي الاصطلاح: والجدل ضربٌ من الخصومة والمغالبة بالحجّة، يثور بين المتجادلين في قضيةٍ مختلف فيها، فيحاول كلٌّ أن تكون له الغلبة فيه والانتصار بما يُدلي به من حجج، ويصطنع فيه من وسائل الإقناع؛ مثلهما كمثل المصطرعين، لا يزال كلاهما بصاحبه يعالج مقاومته حتى ينتصر عليه، ويلقي به على الأرض واهناً مخذولاً. لهذا كان الجدل مدعاة إثارة، ومظنة هياج، يدفع إلى المخاشنة والسخرية، ويغري بالاجترار على الحقيقة واستباحة طمسها بالحيلة والافتراء، وربما دفع إلى القتال والانتقام، وهيهات مع هذه الملابسات أن يبلغ الجدل منتهاه، ويؤتي ثمرته المرجاة إلا مع الحلم، وإحسان الظن، ورياضة النفس على الصبر والاحتمال.

ومادة (جدل) وما اشتق منها وردت في القرآن على ثلاثة معانٍ²، هي:

الأول: بمعنى الخصومة، وهذا المعنى أكثر ما جاء عليه هذا اللفظ، من ذلك قوله تعالى: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا} {غافر:4}، أي: ما يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها، إلا الذين جحدوا توحيدَه. ونحوه قوله سبحانه: {قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا} {هود:32}، أي: قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا. ومنه أيضاً عز وجل: {ومن الناس من يجادل في الله بغير علم} {الحج:3}، أي: يخاصم في الله. أما قوله تعالى: {فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط} {هود:74}، عن مجاهد: {يجادلنا}، يخاصمنا. وتفسير (الجدال) هنا بمعنى السؤال والطلب من الله - كما ذهب إلى ذلك بعضهم - غير مستقيم، واعتبر الطبري هذا التفسير جهلاً بالكلام، قال: لأن الله تعالى أخبرنا في كتابه أنه يجادل في قوم لوط، فقول القائل: "إبراهيم لا يجادل"، موهماً بذلك أن قول من قال في تأويل قوله: {يجادلنا}، يخاصمنا، أن "إبراهيم كان يخاصم ربه، جهل من الكلام، وإنما كان جداله الرسل على وجه المحاجة لهم. ومعنى ذلك: وجاءته البشري يجادل رسلنا، ولكنه لما عُرف المراد من الكلام حذف "الرسل".

¹ - لسان العرب، ج5، ص: 332.

² - مفردات ألفاظ القرآن - 1 / 175.

الثاني: بمعنى المراء، من ذلك قوله عز وجل {ولا جدال في الحج} (البقرة:197)، يعني: لا مراء في الحج، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (الجدال) أن تماري صاحبك حتى تغضبه. وعن مجاهد: {ولا جدال في الحج} قال: المراء. ونحو هذا قوله تعالى {ما ضربه لك إلا جدلاً} (الزخرف:58)، أي: مراء، قاله ابن كثير. ومثله أيضاً قوله عز وجل {وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً} (الكهف:54)، قال الطبري: وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة، لا يُنيب لحق، ولا ينزجر لموعظة.

الثالث: بمعنى الحجاج والمناظرة، من ذلك قوله سبحانه {وجادلهم بالتي هي أحسن} (النحل:)، قال ابن كثير: أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب. وقد يكون المراد ب (الجدل) في هذه الآية الدعوة إلى الدين، قال القرطبي: أمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف¹. ومما جاء بلفظ الحجاج والمناظرة قوله عز وجل {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} (العنكبوت:46)، وقد ذكر بعض أهل العلم فرقاً بين لفظ (الجدال) ولفظ (الحجاج)، فقال: "المطلوب ب (الحجاج) هو ظهور الحجة. والمطلوب ب (الجدال) الرجوع عن المذهب، وذلك أن دأب الأنبياء عليهم السلام كان ردع القوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالهم في دين الله ببذل القوة والاجتهاد في إيراد الأدلة والحجج." نخلص مما تقدم أن لفظ (الجدال) أكثر ما جاء في القرآن الكريم بمعنى (الخصومة)، وجاء أيضاً بمعنى (المراء)، وبمعنى (المناظرة) و(الحجاج)، وهو بحسب هذا المعنى الأخير محمود ومرغوب فيه، وهو بحسب المعنيين الأول والثاني مذموم ومرغوب عنه.

حكم الجدال:

الجدال تنظم فيه الأحكام التكليفية الخمسة، فمنه ما هو واجب يأثم العبد بتركه، ومنه ما هو مستحب، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو حرام، والمقصود من الكلام هنا الكلام عن الجدال الحرام والمكروه.

قَالَ الْكِرْمَايِيُّ: الْجِدَالُ هُوَ الْخِصَامُ وَمِنْهُ قَبِيحٌ وَحُسْنٌ وَأَحْسَنُ، فَمَا كَانَ لِلْفَرَائِضِ فَهُوَ أَحْسَنُ، وَمَا كَانَ لِلْمُسْتَحَبَّاتِ فَهُوَ حَسَنٌ، وَمَا كَانَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ قَبِيحٌ².

وقال المهلب: الجدال موضوعه في اللغة المدافعة، فمنه مكروه، ومنه حسن، فما كان منه تبييناً للحقائق وتبييناً للسنن والفرائض، فهو الحسن وما كان منه على معنى الاعتذار والمدافعات للحقائق فهو المذموم³.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا "أَلَا تُصَلُّونَ" قَالَ: وَيُؤْخَذُ مِنْهُ الْإِشَارَةُ إِلَى مَرَاتِبِ الْجِدَالِ فَإِذَا كَانَ فِيهَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ تَعَيَّنَ نَصْرُ الْحَقِّ بِالْحَقِّ، فَإِنْ

¹- تفسير القرطبي - رضي الله عنه 2 / 409.

²- فتح الباري لابن حجر - 20 / 406.

³- شرح صحيح البخاري لابن بطال - 10 / 377.

جَاوَزَ الَّذِي يُنْكِرُ عَلَيْهِ الْمَأْمُورَ نُسَبَ إِلَى التَّقْصِيرِ، وَإِنْ كَانَ فِي مُبَاحِ اِكْتَفَى فِيهِ بِمُجَرَّدِ الْأَمْرِ وَالْإِشَارَةِ إِلَى تَرْكِ الْأَوَّلَى¹.

أنواع الجدل:

الجدال نوعان: الأول: جدال ممدوح: وهو الجدل لتثبيت الحق ودحض الشبهات:

من أنواع الجدل الجائز الجدل لتثبيت الحق ودحض الشبهات ومنه جدال النبي صلى الله عليه وسلم لقومه لبيان سبيل الحق وكشف ما عندهم من الشبهات.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾².

وهذا النوع من الجدل أحياناً يكون واجباً، وأحياناً يكون مستحباً، فيكون واجباً إذا أثبتت الشبهات في وجه الإسلام، وقام بعض الناس بتزييف الحقائق لطمس معالم الإسلام، أو لتشويه صورته، فأقول: هنا تجب المجادلة لتبيين حقائق الإسلام، وكشف زيف خصومه، ومع ذلك فإن المجادلة والحال هكذا يجب أن تكون بالتي هي أحسن كما أمر ربنا تبارك وتعالى، فليس فيها شيء من السب والشتم، بل ليس فيها إلا إظهار الحق وتبينه للناس. وقد يكون الجدل مستحباً لدعوة غير المسلمين للإسلام، وذلك ببيان ما هم عليه من سوء الديانة وفساد المعتقد، وتحريف ما بين أيديهم من الكتاب إذا كانوا أهل كتاب، مع بيان دين الله تعالى وذلك أيضاً لا يكون إلا بالتي هي أحسن كما أمر ربنا تبارك وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾³.

الثاني: الجدل المذموم: وينقسم إلى أقسام كثيرة فمنها ما هو كفر بالله تعالى، ومنها ما يوجب النار عياداً بالله تعالى، ومنها ما هو علامة على الضلال، ومنها ما يورث العداوة ويقطع المودة، ومنها ما يولد الكبر في قلب صاحبه.

الجدال الذي يشكل جزءاً من الطبيعة الإنسانية، وقد تمثلت هذه الطبيعة في صور مختلفة، يتصدرها القانون الإلهي الذي عبرت عنه آية الكهف بدقة وبيان: "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا" [سورة الكهف، الآية: 54]. كما دلت آية النحل على استمرارية هذا الجدل إلى اليوم الآخر: "يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ جُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" [سورة النحل، الآية: 111]. وقد صنف الكثير من المفسرين والدارسين هذا النوع من الجدل ضمن الجدل المذموم، لكننا لا نستطيع مجازاة هذا

1- فتح الباري لابن حجر - 20 / 406.

2- سورة النحل: الآية / 125.

3- سورة العنكبوت: الآية / 46.

فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ ﴿ [البقرة: 197]، وهذه الثلاثة قبيحة مستهجنة في غير الحج، لكن تخصيص الحج يجعلها فيه أشدَّ قبحاً واستهجاناً.

وينهى الرسول صلوات الله عليه أن يُماري² أهل الكتاب في أهل الكهف، إلا مراءً ظاهرًا لا عمق فيه ولا مغالبة، يقتصر فيه على ما أوحى إليه فيهم من غير تجهيل لهم، ولا عنف في الرد عليهم، فيقول: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 22].

وقيل لعبدالله بن الحسن: ما تقول في المراء؟ قال: ما عسى أن أقول في شيء يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة، فإنَّ أقلَّ ما فيه أن يكون دريةً للمغالبة، والمغالبة من أمتن أسباب القطيعة³.

ويدور جدل القرآن على ضروب من القضايا يكشف عن وجه الحق فيها، وأنواع من الدعاوى الباطلة يدحضها، ويدل على ما بها من زيف، من ذلك قضية إبليس إذ عصى ربه، وأبى أن يسجد لآدم مع الساجدين، ثم أقبل يُباهي بأصله، ويجادل عن نفسه، ويجاهر بالصد عن سبيل الله، في قحة بالغة، وجرأة جامحة، وذلك إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ* قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لَا تَبْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ يَمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ* قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 11 - 188].

الفرق بين الحوار والجدال والمراء:

الحوار أحد الطرق المهمة في التربية، وهو أسلوب حضاري يقوم على احترام الرأي الآخر، وإظهار الحجة بالمنطق والدليل. وقد يعترض المحاور على خصمه فيدعي الجدل، وشتان بينهما؛ فالجدل هنا: عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والغرض منه إلزام الخصم، وإقحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. أو هو دفع المراء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة، حينما يقوم على فرض الرأي بالقوة، وعدم احترام الرأي الآخر، لذا جاءت السنَّة النبوية تحضُّ على ترك المراء والجدال بالباطل. فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خُلُقَه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من ترك الكذب وهو باطل بُني له في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو مُحِقُّ بُني له في وسطها، ومن حسن خُلُقَه بُني له في أعلاها.

1- الفسوق: مجاوزة حدود الشريعة.

2- يماري: يجادل.

3- "البيان والتبيين": 1: 313.

نماذج في جدال الأنبياء عليهم السلام للأمم في القرآن الكريم:

جدال نوح عليه السلام: قال: (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً. ما لكم لا ترجون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً. ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً. وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً. والله أنبتكم من الأرض نباتاً. ثم يُعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً. والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً)، وقال تعالى: (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين. أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم. فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل ننظنكم كاذبين)

ففي الآيات رد على الشبهات الثلاث السابقة:

فأما الشبهة الأولى: وهي أنه بشر، فقد رد عليها بقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾، وهذه الشبهة هي المعجزة الدالة على النبوة، وأما الرحمة، فهي النبوة ﴿وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ [8]، ولكنهم في عمى عن الحق، فالتبس عليهم الحق ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ بسبب عمى البصيرة.

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مَوَاهِبًا﴾، قال الرازي: "فيه ثلاثة مضمرات: ضمير المتكلم، وضمير الغائب، وضمير المخاطب. [9]"

وأما الشبهة الثانية، وهي قولهم لا يتبعك إلا أراذل الناس، فالرد عليها بقوله: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وأنه لن يطرد الفقراء لإرضاء للأغنياء ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [هود: 29].

وأما الشبهة الثالثة: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ...﴾ [هود: 27]، فالرد عليها: "أن الله تعالى أعطاه أنواعاً كثيرة تُوجب فضله عليهم، ولذلك لم يسع في طلب الدنيا، وإنما سعى في طلب الدين، والإعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل، فلعل المراد تقريرُ الفضيلة من هذا الوجه. [10]".

أجابهم نوح عليه السلام بالحجة العظمى فقال: (يا قوم أرايتم إن كنتم على بينة من ربّي) إلى هنا هي الحجة العظمى، وهذه الحجة العظمى هي التي أضافها الله عز وجل إلى نفسه في قوله: (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) وقد أشبعنا القول فيها في كتاب الحجة العظمى. (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما نعدنا إن كنت من الصادقين).

أساليب الدعوة المتنوعة وتدرجها مع طول المكث وكثرة الجدل:

لَمَّا دَعَا نُوحٌ قَوْمَهُ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَخَوَّفَهُمْ عَذَابَهُ وَاتِّقَامَهُ، أَهْمُوهُ بِالضَّلَالِ، فَفَنَىٰ عَنْ نَفْسِهِ الضَّلَالَ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مُبْلِغٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ نَاصِحٌ لَهُمْ، ثُمَّ نَتَمَّلُ التَّرْتِيبَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى وَهُوَ يَخَاطِبُهُمْ: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 63].

يقول الرازي - رحمه الله:-

"بَيْنَ تَعَالَى مَا لِأَجَلِهِ يَبْعَثُ الرَّسُولَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرْكُمْ﴾، وَمَا لِأَجَلِهِ يَنْذِرُ، فَقَالَ ﴿وَلِيَتَّقُوا﴾، وَمَا لِأَجَلِهِ يَتَّقُونَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وَهَذَا التَّرْتِيبُ فِي غَايَةِ الْحَسَنِ؛ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْبَعْثَةِ الْإِنْذَارَ، وَالْمَقْصُودَ مِنَ الْإِنْذَارِ التَّقْوَى عَنْ كُلِّ مَا لَا يَنْبَغِي، وَالْمَقْصُودَ مِنَ التَّقْوَى الْفَوْزَ بِالرَّحْمَةِ فِي دَارِ الْآخِرَةِ. [11]."

جدال إبراهيم وحججه وله ثلاثة مقامات:

"الأول": مع نفسه. "الثاني": مع أبيه. "الثالث": مع نمrod وقومه.

"المقام الأول": رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. وَجَهَ اسْتِدْلَالَهُ أَنَّهُ رَأَى إِنَارَةَ الْكَوْكَبِ وَحَسَنَهُ وَعُلُوَّ مَكَانِهِ وَلَمْ يَرِ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، فَقَالَ: هَذَا رَبِّي، بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ، فَلَمَّا أَفْلَأَ أَدْرَكَ نَقْصَهُ وَعَيْبَهُ؛ لِأَنَّ الْأَقْوَالَ تَغْيِيرٌ، وَالتَّغْيِيرُ حَدُوثٌ وَالكَامِلُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْحَدُوثُ؛ لِأَنَّهُ صَانِعُ الْحَدُوثِ وَطَرْدُ الْقِيَاسِ فِي الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ عَلَى بَاقِي الْكَوْكَبِ بِالْإِعْتِبَارِ الْأَوَّلِ، وَمِنْ حَيْثُ عَلِمَ أَنَّهَا مَكُونَةٌ مَصْنُوعَةٌ عَلِمَ أَنَّهَا لَا بَدَلَ لَهَا مِنْ صَانِعٍ هُوَ أَكْمَلُ مِنْهَا فَقَالَ: (وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) لِيَدْخُلَ فِي ذَلِكَ الْكَوْكَبِ الَّتِي اعْتَرَضَتْهُ فِي طَرِيقِ الْاسْتِدْلَالِ."

المقام الثاني مع أبيه: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْعًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا. قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آهْتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لئن لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا). فَكَانَ جَوَابَ أَبِيهِ جَوَابَ جَاهِلٍ، لِأَنَّهُ قَابَلَهُ عَلَى نُصْحِهِ لَهُ بِالرَّجْمِ وَالهَجْرِ أَشْبَهَ جَوَابَ قَوْمِهِ، وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ)."

المقام الثالث: مع النمرود وقومه وهو قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ قَبِلْتَهُ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). فَالْصَادِرُ مِنْ حُصْمِهِ مَعَارِضَةٌ إِلَّا أَنَّهَا فَاسِدَةٌ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ الَّتِي فَسَرَهَا خُصْمُهُ غَيْرَ الَّذِي قَصَدَهُ إِبْرَاهِيمُ، فَلَا يَخْلُو حَالُ نَمْرُودِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا فَهَمَ حَقِيقَةَ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، أَوْ فَهَمَ إِلَّا أَنَّهُ قَصَدَ الْمَصَادِمَةَ وَالْمَبَاهِتَةَ، وَكِلَاهُمَا يُوْجِبُ الْعُدُولَ إِلَى دَلِيلٍ يَفْضَحُ مَعَارِضَتَهُ وَيَقْطَعُ حِجَاغَهُ، وَمَتَى كَانَ الْخُصْمُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ جَازَ لِحُصْمِهِ الْإِنْتِقَالَ إِلَى دَلِيلٍ آخَرَ أَقْرَبَ إِلَى الْفَهْمِ وَأَفْلَجَ لِلْحِجَّةِ، وَسَيَأْتِي نَظِيرُهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ) وَذَكَرَ الْحِجَّةَ الْعَظْمَى فَقَالَ: (وَكَيفَ أَحَافُ) إِلَى قَوْلِهِ: (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ) وَقَدْ شَرَحْنَا هَذَا فِي كِتَابِ الْحِجَّةِ الْعَظْمَى. فَإِنَّ قِيلَ مَا الْحِكْمَةُ أَنَّهُ جَادَلَ الْمَلِكَ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْإِتْيَانِ بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَكُلِّ ذَلِكَ يُمْكِنُ دَعْوَى الْمَعَارِضَةِ لَهُ وَالكَلَامِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَدْعُهُ بِالْحِجَّةِ الْعَظْمَى وَجَادَلَ قَوْمَهُ بِالْحِجَّةِ الْعَظْمَى، فَالجَوَابُ أَنَّ الْمَلِكَ كَانَ يَدْعُو رَبُوبِيَّةً. لِأَنَّ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَدْعُهُ بِالْحِجَّةِ الْعَظْمَى وَجَادَلَ قَوْمَهُ بِالْحِجَّةِ الْعَظْمَى، فَالجَوَابُ أَنَّ الْمَلِكَ كَانَ يَدْعُو رَبُوبِيَّةً، فَلَا يَقَالُ أَنَّهُ لَا

يخلو إما أن يكون لنا إله أو لا بخلاف حال قومه فإنهم لم يدعوا ربوبية. جدال موسى عليه السلام قال الله سبحانه: (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) إلى أن قال سبحانه: (قَالَ فِرْعَوْنَ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. قَالَ لَئِن اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَجَعَلَنكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ) والإشارة إلى وجه الدلالة من ذلك أن فرعون لما قال: (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) علم موسى أنه سؤال عن ماهية رب العالمين، ورب العالمين لا ماهية له، لانه الأول فلا شيء قبله فيكون منه، بل هو مكوّن ما تتكوّن الأشياء منه، فلم يشتغل موسى برّد سؤاله وبيان فساده، وكان المقصود تعريف الربّ جلّ وعلاً بصفته فقال: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) فحصر الكائنات في ثلاث كلمات فلما قال: (أَلَا تَسْتَمْعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ) رداً على فرعون قوله (أنا ربكم الأعلى) فلما قال: (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) أردف ما ذكر بشاهدين آخرين فقال: (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا) ؛ لأنّ المشرق والمغرب آيتان عظيمتان لا يقدر فرعون على ادّعائهما، فلما اندحضت حجّته قال: (لَئِن اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَجَعَلَنكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ) آيتان عظيمتان في انقلاب اعينهما، وإنما كانت الآية في العصا؛ لأنها أنزلت على آدم بسبب الكلب لما نبخ عليه لما تعاضمت دعوى فرعون قوبل بها إهانة له واستحقاراً، وكونها ظهرت في صورة ثعبان مناسب لحاله؛ لأن مسها لين وفعالها قاتل. وفرعون بإظهار كرمه وعدله لين وفعله قاتل لنفسه وغيره. فأما يده البيضاء فالإشارة فيها جئتكَ بالشرع النير الأبيض الذي لا ظلمة فيه، كما قال رسول الله (جئتكم بها بيضاء نقية) ولما كانت آية موسى عليه السلام حسيّة، ومعجزاته مرئية لم يخاطبهم بالحجة العظمى؛ لأنها عقلية، ولما هموا بقتله لهم الله سبحانه مؤمن آل فرعون الحجّة العظمى فقال: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ) وقد شرحنا ذلك في كتاب الحجّة العظمى. وأما جدال رسول الله (لكفار قريش واليهود فسيأتي في ذكر الأدلة الدالة على صدق رسالته.

المحاضرة السادسة

القضاء والقدر في القرآن والسنة

دراسة موضوعية

المحتويات:

١ القضاء والقدر ٢ معنى القضاء والقدر ٢,١ معنى القضاء والقدر ٢,٢ معنى القضاء والقدر ٢,٣ معنى القضاء والقدر ٣ الفرق بين القضاء والقدر ٣,١ علاقة القضاء والقدر بالشَّرِّ ٣,٢ الفرق بين القضاء والقدر ٣,٣ مراتب الإيمان بالقضاء والقدر..

تعريف القضاء والقدر:

القضاء لغة: كما قال ابن فارس في مادة) قضى:(القاف، والضاد، والحرف المعتل؛ أصل صحيح يدل على إحكام أمر، وإتقانه، وإنفاذه لجهته، قال الله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12].

والقضاء: هو الحكم، والصنع، والحتم، والبيان، وأصله القطع، والفصل، وقضاء الشيء، وإحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه؛ فيكون بمعنى الخلق¹.

وفي الاصطلاح: تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته².

والقدر لغة: مصدر قدرت الشيء أقدره قدرًا؛ أي: أحطت بمقداره، فهو الإحاطة بمقادير الأمور.

وفي الاصطلاح: هو علم الله تعالى بالأشياء وكتابته لها قبل كونها، على ما هي عليه، ووجودها على ما سبق به علمه، وكتابته بمشيئته وخلقها.

وعليه فكل من القضاء والقدر يأتي بمعنى الآخر؛ فمعاني القضاء تؤول إلى إحكام الشيء، وإتقانه، ونحو ذلك من معاني القضاء، ومعاني القدر تدور حول ذلك، وتعود إلى التقدير، والحكم، والخلق، والحتم، ونحو ذلك.

حكم الإيمان بالقضاء والقدر:

الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الستة التي وردت في حديث جبريل الطويل فقال: "وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ"³.

وقد دل القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع المسلمين والفطرة والعقل على وجوب الإيمان بالقدر، وأن من أنكر الإيمان بالقدر فقد كفر بالله تعالى وخرج من ملة الإسلام.

الأدلة من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 48]⁴، وقال تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 42، 44]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: 47]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11]⁵.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِإِذْ لِلَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 166]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 156، 157]، وغير ذلك من الآيات.

1- انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص441-442).

2- رسائل في العقيدة، للشيخ محمد بن عثيمين (ص37).

3- أخرجه البخاري برقم (50، 4777)، ومسلم برقم (9)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم برقم (1)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

4- معنى هذه الآية: أن الله عز وجل قدر أن يخلق خلقًا، ويأمرهم وينهاهم، ويجعل ثوابًا لأهل طاعته، وعقابًا لأهل معصيته، فلما قدره كتب ذلك وعيبه، فسماه الغيب وأم الكتاب، وخلق الخلق على ذلك الكتاب: أرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وما يصيبهم من الأشياء من الرخاء والشدّة، فكان أمر الله الذي مضى، وفرغ منه، وخلق الخلق عليه قدرًا مقدورًا. انظر: تفسير جامع البيان للطبري (15/12).

5- قال ابن كثير في تفسيره: (8/138): عند قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11]، قال علقمة: (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنّها من عند الله فيرضى ويسلم)، وانظر: تفسير الطبري (23/421).

لقد تضافرت الأدلة من السنة المطهرة على الإيمان بالقضاء والقدر، ومنها:

يقول -صلى الله عليه وسلم- في حديث جبريل الطويل: "وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"، وقال -صلى الله عليه وسلم-: "وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُحِطِّطِكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ"¹.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: "وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ"²، وقال -صلى الله عليه وسلم-: "كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَبِيرُ"³، وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة.

دليل الإجماع:

فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله، قال النووي: وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة، وأهل الحل والعقد من السلف والخلف؛ على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى⁴، وقال ابن حجر: ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى⁵.

وقال في تذكرة المؤتسي: (وأجمع أئمة السلف من أهل الإسلام على الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، قليله وكثيره بقضاء الله وقدره، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يجري خير وشر إلا بمشيئته، خلق من شاء للسعادة واستعمله بها فضلاً، وخلق من أراد للشقاء واستعمله به عدلاً، فهو سر استأثر به، وعلم حجه عن خلقه، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]، قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: 179]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: 13]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]⁶.

دليل الفطرة:

الإيمان بالقدر معلوم بالفطرة قديماً وحديثاً، ولم ينكره إلا الشواذ من المشركين من الأمم، ولم يقع الخطأ في نفي القدر وإنكاره، وإنما وقع في فهمه على الوجه الصحيح؛ ولهذا قال سبحانه عن المشركين: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: 148].

1- أخرجه أحمد في المسند (5/182، 183، 185، 189)، وأبو داود برقم (4699)، وابن ماجه برقم (77)، والترمذي برقم (2516)، والحاكم في مستدركه (624/3) رقم (6304)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (7957).

2- جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (2664)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

3- أخرجه مسلم برقم (2655)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

4- انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (1/155).

5- فتح الباري، لابن حجر (11/287)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي (3/534-538)؛ حيث نقل الإجماع على ذلك عن جمع غفير من السلف، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (8/452.459).

6- تذكرة المؤتسي، شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي (1/236).

فهم أثبتوا المشيئة لله، لكنهم احتجوا بها على الشرك، ثم بيّن سبحانه أن هذا هو شأن من كان قبلهم، فقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: 148].

وكانت العرب في الجاهلية تعرف القدر ولا تنكره، ولم يكن هناك من يرى أن الأمر مستأنف، وهذا ما نجده مبثوثاً في أشعارهم كما مر في المقدمة،

دليل العقل:

أما دلالة العقل فهي أن العقل الصحيح يقطع بأن الله هو خالق هذا الكون، ومدبره، ومالكة، ولا يمكن أن يوجد على هذا النظام البديع، والتناسق المتألف، والارتباط الملتحم بين الأسباب والمسببات هكذا صدفة؛ إذ الموجود صدفة ليس له نظام في أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً حال بقائه وتطوره؟

فإذا تقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شيء في ملكه إلا ما قد شاءه وقدره.

ومما تقدم فإن من لم يؤمن بالقدر لا تقبل أعماله، فلا ينتفع لا بصلاة ولا بصيام ولا بصدقة ولا غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 5].

فإيمان العبد ودينه لا يمكن أن ينتظم إلا إذا آمن بأقدار الله جل وعلا، وأن كل شيء بقدر، وأن يؤمن بالقدر كله حلوه ومره، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فلا إيمان لمن لم يؤمن بالقدر، ومن كذب بالقدر فلا إيمان له ولا توحيد، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن وكذب بالقدر فهو نقض للتوحيد¹، ومما يوضح هذا قول الإمام أحمد: (القدر قدرة الله²، فأبي توحيد عند من ينكر قدرة الله³).

مراتب الإيمان بالقدر:

1- الإيمان بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلاً من الأزل والقدم فلا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

2- الإيمان بأن الله كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

3- الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة فلا يكون في هذا الكون شيء من الخير والشر إلا بمشيئته سبحانه.

1- أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة برقم (925)، واللالكائي في شرح الاعتقاد برقم (1224)، والفريابي في القدر (ص159-160)، والآجري في الشريعة (ص215).

2- منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (254/3)، وشفاء العليل، لابن القيم (ص53)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (308/8)، وهي من قول عمر بن الخطاب قبل الإمام أحمد؛ كما ذكره ابن بطة في الإبانة برقم (1562).

3- تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي (1/236).

4- الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله فهو خالق الخلق وخالق صفاتهم وأفعالهم كما قال سبحانه: (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) الأنعام/102

ومن لوازم صحة الإيمان بالقدر أن تؤمن:

- بأن للعبد مشيئة واختياراً بما تتحقق أفعاله كما قال تعالى: (لمن شاء منكم أن يستقيم) التكوير/28 وقال: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) البقرة/286

- وأن مشيئة العبد وقدرته غير خارجة عن قدرة الله ومشيئته فهو الذي منح العبد ذلك وجعله قادراً على التمييز والاختيار كما قال تعالى: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) التكوير/29

- وأن القدر سر الله في خلقه فما بينه لنا علمناه وآمنا به وما غاب عنا سلمنا به وآمنا، وألا ننازع الله في أفعاله وأحكامه بعقولنا القاصرة وأفهامنا الضعيفة بل نؤمن بعدل الله التام وحكمته البالغة وأنه لا يسأل عما يفعل سبحانه وبحمده.

هل هناك فرق بين القضاء والقدر؟:

من العلماء من فرق بينهما، ولعل الأقرب أنه لا فرق بين (القضاء) و (القدر) في المعنى فكل منهما يدل على معنى الآخر، ولا يوجد دليل واضح في الكتاب والسنة يدل على التفريق بينهما، وقد وقع الاتفاق على أن أحدهما يصح أن يطلق على الآخر، مع ملاحظة أن لفظ القدر أكثر وروداً في نصوص الكتاب والسنة التي تدل على وجوب الإيمان بهذا الركن. والله أعلم.

منزلة الإيمان بالقدر من الدين:

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة التي وردت في قوله صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان: " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره " رواه مسلم (8) وقد ورد ذكر القدر في القرآن في قوله تعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر) القمر/49. وقوله تعالى: (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) الأحزاب/38.

مراتب الإيمان بالقدر (بالتفصيل):

اعلم وفقك الله لرضاه أن الإيمان بالقدر لا يتم حتى تؤمن بهذه المراتب الأربع وهي:

أ . مرتبة العلم: وهي الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وأن الله قد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون بعلمه القديم وأدلة هذا كثيرة منها قوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) الحشر/22، وقوله تعالى: (وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) الطلاق/12.

ب . مرتبة الكتابة: وهي الإيمان بأن الله كتب مقادير جميع الخلائق في اللوح المحفوظ. ودليل هذا قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) الحج/70.
وقوله صلى الله عليه وسلم: " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن تخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة " رواه مسلم (2653).

ج . مرتبة الإرادة والمشئبة: وهي الإيمان بأن كل ما يجري في هذا الكون فهو بمشيئة الله سبحانه وتعالى ؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يخرج عن إرادته شيء.

والدليل قوله تعالى: (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) الكهف/23،24 وقوله تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) التكوير/29.

د . مرتبة الخلق: وهي الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا يقع في هذا الكون شيء إلا وهو خالقه، لقوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) الزمر/62. وقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) الصافات/96.

وقوله صلى الله عليه وسلم: " إن الله يصنع كل صانع وصنعتة " أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (25) وابن أبي عاصم في السنة (257 و 358) وصححه الألباني في الصحيحة (1637).

المحاضرة السابعة

عقيدة التوحيد في القرآن الكريم دراسة موضوعية

مقدمة: إن عقيدة التوحيد هي العقيدة التي بعث الله بها رسله، وأنزل بها كتبه من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان كل رسول يدعو قومه إلى التوحيد الخالص بأقرب الطرق وأيسرها على أفهام الناس، بحيث كان القوم كلهم يفهمون ما يريد رسولهم منهم بكل وضوح ويسر. حتى جاء آخر الرسل ونبي الإنسانية كافة محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنزل الله عليه القرآن هدى وشفاء ورحمة للمؤمنين، وداعيا إلى عقيدة التوحيد متبعًا في ذلك منهجًا خاصًا يناسب جميع الناس ومختلف الفئات.

تعريف عقيدة التوحيد:

تعريف العقيدة لغة:

كلمة العقيدة في اللغة مأخوذة من العقد، وهو نقيض الحل، وهو يدل على الشدة والثوق، ومنه: عقد الشيء يعقده عقدا وانعقد وتعقد، والمعاهد: هي مواضع العقد، والعقدة: القلادة، والعقد: الخيط ينظم فيه الخرز وجمعه

عقود، ويقال: اعتقد الدر والخرز وغيره: إذا اتخذ منه عقداً، وعقدت الحبل اعقده عقداً وقد انعقد، ومعقد الحبل مثل مجلس، وهو موضع عقده يقال له: عقده، وجمعها عقد، لأنها تمسكه وتوثقه، ومنه قوله تعالى: { وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } الفلق آية: 4، أي السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن فيها¹.

هذا هو أصل العقد: وهو أنه نقيض الحل، وهو وصل الشيء بغيره كما تعقد الحبل بالحبل، ثم استعمل في جميع أنواع العقود في المعاني والأجسام²، فمن استعملاته في المعاني أن يقال: عقد العهد واليمين يعقدهما عقداً وعقدتهما أي أكدهما، ومنه قوله تعالى: { وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ } سورة النساء، آية: 33، وقرئ بالتشديد ومعناه التوكيد والتغليظ كقوله تعالى: { وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } سورة النحل، آية: 91، ومنه قول الخطيئة:

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم... شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا³

فجعلوا العناج والكرب مثلين لتأكيد الوفاء بالعهد⁴.

والمعاهدة: المعاهدة، وفي قراءة ابن عباس: { وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ } النساء 33، وكقوله تعالى: { وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ } المائدة 89، ويجوز أن تقرأ بالتخفيف.

ثم أطلق العقد على العهد وجمعه عقود، وهي أوكد العقود، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } سورة المائدة 1، فإذا قلت: عاقدت فلاناً وعقدت عليه، فتأويله: عاهدته وألزمته ذلك باستيثاق.

تعريف العقيدة شرعاً:

هي ما يدين به الإنسان ربه وجمعها عقائد، والعقيدة الإسلامية مجموعة الأمور الدينية التي تحب على المسلم أن يصدق بها قلبه، وتطمئن إليها نفسه، وتكون يقيناً عنده لا يمازجه شك ولا يخالطه ريب، فإن كان فيها ريب أو شك كانت ظناً لا عقيدة، ودليل ذلك قوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } النساء، آية: 33، وقوله تعالى: { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ } البقرة 2. وقوله تعالى: { إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ } المائدة 89، فالعقيدة إذاً ليست أموراً عملية، إنما هي الأمور الدينية العلمية التي تحب على المسلم اعتقادها في قلبه لإخبار الله تعالى بها بكتابه أو بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول صاحب لسان العرب: "والعقيدة في الدين ما يقصد به الإعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الله وبعثه الرسل وجمعها عقائد"⁵.

تعريف التوحيد:

1- معجم مقاييس اللغة، ج4، ص: 87.

انظر الآية الأولى من سورة المائدة بتفسير القرطبي 31/6 والبحر المحيط 409/3-2.

3- العناج خيط أو سير يشد في أسفل الدلو ثم في عروقه أو في إحدى آذانها، فإذا انقطع الحبل أمسك العناج الدلو أن تقع في البئر، والكرب: حبل يشد على عراقي الدلو ثم يثنى ثم يثلث والجمع أكراب.-

1 - انظر تفسير الطبري 27/6.-

2- لسان العرب ابن منظور، ج5، ص: 2251.

التَّوْحِيدِ، لُغَةً جَعَلَ الشَّيْءَ وَاحِدًا غَيْرَ مُتَعَدِّدٍ¹. "الْوَحْدُ الْمُنْفَرِدُ، وَالوَاحِدُ أَوَّلُ عَدَدٍ مِنَ الْحِسَابِ، وَالْوَحْدَانُ جَمَاعَةٌ الْوَاحِدِ، وَالرَّجُلُ وَحْدٌ وَالْوَحْدُ: الَّذِي لَا يَعْرِفُ لَهُ أَصْلٌ²، وَوَحْدَهُ تَوْحِيدًا: جَعَلَهُ وَاحِدًا³."

وفي الاصطلاح: التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، فهو عمل العبد، يفرد الله بطاعته لا يشرك معه غيره ولا يتوجه قصده بها أو بشيء منها إلى غير الله.

-عرفه محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ) بقوله: "التوحيد هو إفراد الله بالعبادة" أي أن تعبد الله وحده لا تشرك به شيئاً، لا تشرك به نبياً مرسلًا، ولا ملكاً مقرباً ولا رئيساً ولا ملكاً ولا أحداً من الخلق، بل تفرد وحده بالعبادة محبة وتعظيمًا، ورغبة ورهبة، وهناك تعريف أعم للتوحيد وهو: "إفراد الله سبحانه وتعالى بما يختص به"⁴

-عرفه الإمام الدارمي⁵ بقوله: "وتفسير التوحيد عند الأمة، وصوابه، قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له."

-عرفه إمام الشافعية أبو العباس بن سريج بقوله: "توحيد أهل العلم وجماعة المسلمين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"⁶.

-عرفه الإمام الطبري في تفسير قول الله (إِلَهًا وَاحِدًا) [البقرة - 133] بقوله: "أي نخلص له العبادة، ونوحد له الربوبية، فلا نشرك به شيئاً، ولا نتخذ دونه رباً"⁷.

-عرفه عبد الرزاق عفيفي (المتوفى: 1415هـ) بقوله: التوحيد يطلق شرعا على تفرد الله بالربوبية والإلهية، وكمال الأسماء والصفات⁸.

فالمعبود إنما يعبد لأمرين:

1- لكونه خالق العابدين ومالكهم ومدبر أمرهم، قال الله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾، فلا يكون إله إلا وقد خلق خلقا يعبدونه فيستقل بهم.

1- العين 281/3، تهذيب اللغة 193/5،

2- القاموس المحيط ص 414.

3- الصحاح 548/2، لسان العرب 446/3 - 447،

4- كتاب: شرح ثلاثة الأصول، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر الطبعة: الطبعة الرابعة 1424هـ - 2004م، الجزء: 1 الصفحة: 39.

5- رد الإمام الدارمي، عثمان بن سعيد على بشر المريسي للإمام الدارمي ص6.

6- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم 191/4.

7- جامع البيان 562/1.

8- تاب: مذكرة التوحيد المؤلف: عبد الرزاق عفيفي (المتوفى: 1415هـ) الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1420هـ الجزء: 1 الصفحة: 3.

2- لذاته، ولا يكون ذلك إلا إذا كان كاملاً لا نقص في صفاته ولا عيب، قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، فبين أن العادم لصفات الكمال ناقص لا يمكن أن يكون معبوداً وبين أن العلم بذلك فطري، فإذا توجه العابد بعبادته لواحد أفرده بقصده وعمله لم يتوجه إلى غيره، فقد اعتقده واحداً منفرداً في خلقه وملكوته وتدييره، ومنفرداً في كماله ذاتاً وصفاتاً.¹

نصوص عقيدة التوحيد من القرآن:

في الحقيقة هناك أكثر من ثمانين 80 آية تتحدث عن التوحيد في القرآن الكريم، بالإضافة إلى النصوص الحديثة، ولأن الموضوع يقتضي منا الاختصار على القرآن فقط فإننا نسوق لكم جملة من الآيات وباقي الآيات في الملحق 1:

قال تعالى: ﴿وَالْهُنُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ سورة البقرة، آية: 163.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ سورة الأنبياء، آية: 25.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ... الخ السورة﴾. سورة المسد.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ سورة النساء، آية: 36.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٍ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة الرعد آية: 36-37

- مضامين النصوص:

1: تفرد الله تعالى بالألوهية، والتوحيد أساس دعوة الرسل جميعاً، وإفراجه تعالى بالعبودية، ونبذ الشرك وإخلاص النية في طاعة الله.

- أقسام التوحيد: التوحيد على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: توحيد الربوبية: هو إفراد الله تعالى بأفعاله كالخلق والملك والتدبير والإحياء والإماتة، ونحو ذلك قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ سورة العنكبوت، آية: 61.

القسم الثاني: توحيد الألوهية: هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة دون سواه كائناً من كان كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبِّيَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ سورة الإسراء، آية: 23.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله عز وجل بما له من الأسماء والصفات، فيعتقد العبد أن الله لا مماثل له في أسمائه وصفاته، وهذا التوحيد يقوم على أساسين:

1- المصدر السابق، ج: 87، ص: 102.

الأول: الإثبات: أي إثبات ما أثبتته الله لنفسه في كتابه أو أثبتته له نبيه صلى الله عليه وسلم من الأسماء الحسنى والصفات العلى على وجه يليق بجلال الله وعظمته من غير تحريف لها أو تأويل لمعناها أو تعطيل لحقائقها. أو تكيف له.

الثاني: التنزيه: وهو تنزيه الله عن كل عيب، ونفي ما نفاه عن نفسه من صفات النقص، والدليل على ذلك قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فنزه نفسه عن مماثلته لخلقه، وأثبت لنفسه صفات الكمال على الوجه اللائق به سبحانه.

• التوحيد أساس دعوة كل الرسل:

تشارك كل الشرائع السماوية في الدعوة إلى توحيد الله تعالى إذ هو الأصل في دعوة الرسل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل 36 وكل دعوة إلى الشرك أو نسبة ما لا ينسب إلى الله محض شرك وتحريف لذلك فقد نبه القرآن إلى ما تعرضت له الكتب السماوية من تحريفات أخرجتها عن طبيعة التوحيد قال تعالى: ﴿يَحرفون الكلم عن مواضعه وقد نسوا حظا مما ذكروا به﴾ سورة المائدة، آية: 13.

• الأدلة على وحدانية الله: وحدانية الله تعالى ثابتة بالنقل والعقل:

أولا: من النقل الآيات القرآنية التي تتحدث عن التوحيد، والنصوص الحديثية المتواترة عن النبي (ص).

ثانيا: من العقل، وفيه أمران:

1- وحدة النظام: فالكون يخضع لنظام واحد دقيق حيث أن جميع الأجرام تتحرك في اتجاه معاكس لعقارب الساعة ويستحيل أن يكون ذلك بمحض الصدفة أو الاتفاق مما يدل على أن المنظم واحد وهو الله تعالى، وفرضية تعدد الآلهة يترتب عنها بالضرورة فساد نظام الكون لاقتضاء التضارب بينها قال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

2- وحدة الخلق:

فالتشابه بين الإنسان والحيوان والنبات على مستوى التغذية والتنفس والتوالد ليعد دليلا قاطعا على أن الخالق واحد لا اله الا هو.

- فضائل التوحيد: كثيرة منها:

— أنه يدفع بصاحبه إلى الثبات على الاستقامة والإخلاص في القول والعمل.

— أنه السبب الوحيد لرضا الله و ثوابه.

— أنه يحرر العبد من رق المخلوقين و التعلق بهم و خوفهم و رجائهم و العمل لأجلهم.

— أن جميع الأعمال و الأقوال الظاهرة و الباطنة متوقفة في قبولها و في ترتب الثواب عليها على التوحيد.

- أن الله يدفع عن أهل الإيمان والتوحيد شرور الدنيا والآخرة ، ويمن عليهم بالسكينة والطمأنينة.

سبل ترسيخ وتنمية التوحيد في القلب، وهو زبدة هذا الموضوع.

- التفكير في ملكوت السموات والأرض.

- فعل الطاعات و ترك المعاصي.

- التأمل في نعم الله سبحانه الظاهرة والباطنة.

- دوام الصلة بالله و مجالسة أهل الخير والصلاح.

- مجاهدة النفس وتطهير القلب من الغرور والعجب والكبر والحسد.

المحاضرة الثامنة

الدرس السادس

وحدة التدبير في القرآن الكريم

أولاً: وحدة التدبير في سورة يوسف عليه السلام

1- **بين يدي السورة:** سورة يوسف هي السورة الثانية عشرة بحسب الترتيب القرآني العثماني، وآياتها مائة وإحدى عشرة (111) آية إجمالاً. وهي سورة مكية بالإجماع، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إلا ثلاث آيات من أولها، وهي: 1، "2،3"، "7 فمدنية. وهي من المثني، نزلت بعد سورة: "هود"، بدأت السورة بحروف مقطعة "الر"، وذكر اسم نبي الله يوسف أكثر من 25 مرة، تقع في الجزء 13"، "الحزب 24"، "25، الربع 1"، "2، 3"، "من المصحف الشريف.

والقول الصحيح أن سورة يوسف جميعها مكية، ولا التفات إلى قول من قال بأن فيها آيات مدنية، لأن هذا القول لا دليل عليه.

قال الألوسي: سورة يوسف مكية كلها على المعتمد، وروى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالوا: هي مكية إلا ثلاث آيات من أولها. واستثنى بعضهم رابعة وهي قوله - تعالى:-

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ﴾

2- وكل ذلك واه جدا لا يلتفت إليه، وما اعتمدهنا - كغيرنا - من أنها كلها مكية - هو الثابت عن ابن عباس¹.

تسميتها:

الاسم الوحيد لهذه السورة سورة (يوسف)، وقد ذكر ابن حجر في كتابه "الإصابة" في ترجمة رافع بن مالك الزرقى عن ابن إسحاق، أن أبا رافع بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف، يعني بعد أن بايع النبي صلى الله عليه وسلم يوم العقبة .

ووجه تسميتها ظاهر؛ لأنها قصت قصة يوسف عليه السلام كلها، ولم تذكر قصته في غيرها، ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر، وفي هذا الاسم تميز لها من بين السور المفتحة بحروف {الر²}.

سبب نزول السورة:

- عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ" قَالَ: أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ قَصَصْتَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى "الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ" إِلَى قَوْلِهِ "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ" الْآيَةَ فَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ حَدَّثْنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا" قَالَ كُلُّ ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِالْقُرْآنِ³.

- قال عون بن عبد الله ملاً أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالوا: يا رسول الله حدثنا فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا" الْآيَةَ قَالَ: ثُمَّ أَتَاهُمْ مَلَأُ مِلَّةً أُخْرَى فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَوْقَ الْحَدِيثِ وَدُونَ الْقُرْآنِ يَعْنُونَ الْقَصَصَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ" فَأَرَادُوا الْحَدِيثَ فَدَهَّمَهُمْ عَلَى أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَرَادُوا الْقَصَصَ فَدَهَّمَهُمْ عَلَى أَحْسَنَ الْقَصَصِ.

فضلها:

1- تفسير الوسيط للططاوي، ج4، ص: 235.

2- التحرير والتنوير، ج4، ص: 221.

3- الواحدي، أسباب النزول، ص: 330.

1- روى أبو يعلى الموصلي في "مسنده"، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في قوله: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ الآية، قال: أنزل الله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله! لو قصصت علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ إلى ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ الآية، فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم زماناً، فقالوا: يا رسول الله! لو حدثتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها﴾ (الزمر: 23)، كل ذلك يؤمرون بالقرآن. قال الشيخ البوصيري: هذا حديث حسن.

2- عن مصعب بن عمير رضي الله عنه لما قَدِمَ المدينة يُعَلِّمُ الناس القرآن بعث إليهم عمرو بن الجموح ما هذا الذي جئتمونا به؟ فقالوا إن شئت جئناك فأسمعناك القرآن، قال: نعم فواعدهم يوماً فجاء فقرأ عليه القرآن "الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون" ..

3- عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال سمعت عمر رضي الله عنه يقرأ في الفجر بسورة يوسف

4- قال خالد بن معدان: سورة يوسف ومريم مما يتفككه بهما أهل الجنة في الجنة.

5- قال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها.

تناسب السورة:

1- تناسب افتتاح سورة يوسف مع خاتمتها¹

قال تعالى في أولها: ﴿الر تلك آيات الكتاب المبين (1) إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون (2) نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين (3)﴾ وقال في الخاتمة: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولئك ما كان حديثاً يُفتَرى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (111)﴾ إذن هذا أحسن القصص ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ هذا مرتبط. إذن هذا الترابط كانت الآية حينما تنزل يقول جبريل U وضعها بين هذه الآية وتلك وهذا الترتيب توقيفي. الآية قد تنزل لسبب معين (أسباب النزول) وقد تنزل من ربنا سبحانه وتعالى المشرع سواء سأل عنها السائل ﴿ويسألونك عن المَحِيض (222) البقرة﴾ أو لم يسأل أو حادث معين ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير (1) المجادلة﴾ قد تنزل لسبب أو قد تنزل لحكمة يريد بها الله سبحانه وتعالى لكن وضعها يكون في مكان مناسب لما قبلها وما بعدها ولذلك نلاحظ جبريل U كان يعارض الرسول صلى الله عليه وسلم في رمضان يعرض عليه ما نزل من القرآن وفي السنة الأخيرة عرضه عليه مرتين معناه كل آية وضعت في مكانها توقيفاً.

2- تناسب خواتيم هود مع فواتح يوسف

في خواتيم سورة هود قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)﴾ وقال في أوائل يوسف: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين (3)﴾، ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾

1- تناسب المراد والمقاطع، السيوطي...

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقُصَصِ) أثبت أن الله تعالى يقصّ على الرسول في سورة هود لكنه أثبت صفة أنه أحسن القصص في يوسف. قال: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (120) وقال في يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقُصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾. قال في خاتمة هود: ﴿وَمَا رُبُّكَ بِعَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (123) ﴿ربنا ليس غافلاً عما فعله إخوة يوسف بيوسف¹﴾.

3- تناسب خاتمة يوسف مع فاتحة الرعد

في خاتمة سورة يوسف قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (111) ﴿ما هو هذا؟ هذا القرآن، بداية الرعد﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (1) ﴿قال في يوسف: ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وفي الرعد: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، عموم وخصوص، المؤمنون قلة مع أنه تفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، إذن الكلام متصل. في خواتيم سورة يوسف قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (105) ﴿وذكر من هذه الآيات في بداية الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (2) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِزْقَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (3) ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَرِزْقٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَعَبْءٌ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (4) ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون، فصل بعد إجمال. ﴿وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ﴾ وفي الرعد فصل الآيات رفع السموات ومد الأرض وجعل الرواسي وهذه كلها آيات لكنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون²﴾.

مقاصد السورة:

تقصد سور القرآن الكريم في الأساس إلى تقرير الحقائق الدينية الكبرى، وتنفرد كل سورة من سوره ببعض المقاصد التي ترمي إليها، وتقصد لإبرازها، ويقول طنطاوي جوهرى نقلا عن الأوسى: كما يراها قد ساقته ما ساقته من حكم وأحكام، وعبر وعظات، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم، وجمال العرض، حتى إننا لنستطيع أن نقسم أهم الموضوعات التي تحدثت عنها إلى عشرة أقسام³ وقد تضمنت سورة يوسف جملة من المقاصد نذكر منها:

1- وصف القرآن الكريم بـ (الإبانة) لكل ما يوجب الهدى؛ لما ثبت من تمام علم منزله غيباً وشهادة، وشمول قدرته قولاً وفعلاً.

1- البرهان في تناسب سور القرآن، ابراهيم الغرناطي، ص: 320.

2- نظم الدرر، البقاعي: ج5، ص: 221.

3- الالوسي، ج3، ص: 201.

2- إثبات رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، وإعجاز كتابه المبين، والاعتبار بقصص الرسل صلوات الله عليهم أجمعين .

3- بيان أن الرؤيا الحسنة التي يراها المسلم حق، بما تحمله عن نبوءات عن المستقبل القريب، أو البعيد .

4- بيان أن قدرة الله غالبية، لا يقف في طريقها شيء، وأن الأمور في خواتيمها لا تخرج عن إرادته سبحانه وتعالى.

5- بيان أن الحاكمية الحقيقية في هذا الكون لله سبحانه، وأن أي حاكمية أخرى لا وزان لها في ميزان الشرع .

6- بيان أن الكرامة والاعتزاز والإباء، تدر من الريح حتى المادي أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء .

7- تثبيت الوحي الذي سيقى سورة لتثبته من بين ما تثبت من قضايا هذه العقيدة، وهذا الدين في قلوب المؤمنين .

8- بيان أن كثيراً من الناس لا يقفون على الآيات التي بثها سبحانه في هذا الكون بقصد الاعتبار والاتعاظ، حين إن أكثر الناس يبرون على هذه الآيات، وهم عنها غافلون، أو معرضون، غير مباليين بما تحمله من دلالات وعبر.

9- بيان أن الإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك، فلا تبقى في القلب دينونة إلا لله سبحانه، ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد .

10- بيان أن من سنة الله في خلقه معاقبة المكذبين بآياته، والمعرضين عن الاعتبار في آياته الكونية .

11- بيان أن سنة الله في الدعوات أن تكون مصحوبة بالشدائد، ومحفوفة بالكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد، ولا بقية من طاقة. ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس. يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون. ويحل بأس الله بالجرمين، مدمراً ماحقاً لا يقفون له، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير .

12- بيان أن في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم، وفي ذلك رحمة للمؤمنين؛ لأنهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون، فتصلح أحوالهم، ويكونون في اطمئنان بال، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم، وسبب لرحمته إياهم في الآخرة .

13- بينت هذه السورة -وقد ذكر فيها كثير من الشدائد- أن العاقبة خير للذين اتقوا، وهو وعد الله الصادق الذي لا يخلف وعده .

أخيراً، ذكر ابن عاشور أن نزول هذه السورة قبل اختلاط النبي صلى الله عليه وسلم باليهود في المدينة معجزة عظيمة من إعلام الله تعالى إياه بعلوم الأولين؛ وبذلك ساوى الصحابة علماء بني إسرائيل في علم تاريخ الأديان والأنبياء.....

محور مواضيع السورة:

سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الانبياء وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله "يوسف بن يعقوب" وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء ومن ضروب المحن والشدائد من اخوته ومن الآخرين في بيت عزيز مصر وفي السجن وفي تأمر النسوة حتى نَجَّاهُ اللهُ من ذلك الضيق والمقصود بها تسلية النبي عليه السلام بما مر عليه من الكرب والشدة وما لاقاه من أذى القريب والبعيد.

بعض ما تميز به نبي الله يوسف عليه السلام:

فيوسف - عليه السلام - وهو الشخصية الرئيسية في القصة - حدثنا عنه حديثا مستفيضا نستطيع من خلاله، أن نرى له - عليه السلام - مناقب ومزايا متنوعة من أهمها ما يأتي:

- 1- امتلاكه لنفسه ولشهوته مهما كانت المغريات، بسبب خوفه لمقام ربه، ونهيته لنفسه عن الهوى... ولا أدل على ذلك من قوله - تعالى -: ﴿وَرَأَوْنَاهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ...﴾
- قال الشيخ القاسمي: قال الإمام ابن القيم ما ملخصه: «لقد كانت دواعي متعددة تدعو يوسف إلى الاستجابة لطلب امرأة العزيز منها: ما ركبته الله في طبع الرجل من ميله إلى المرأة... ومنها: أنه كان شابا غير متزوج.. ومنها: أنها كانت ذات منصب وجمال.. وأنها كانت غير آبية ولا ممتنعة... بل هي التي طلبت وأرادت وبذلت الجهد.. ومنها: أنه كان في دارها وتحت سلطانتها.. فلا يخشى أن تنم عليه.. ومنها: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتتيال فأرته إياهن، وشكت حالها إليهن... ومنها: أنها توعدهت بالسجن والصغار إن لم يفعل ما تأمره به.. ومنها: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يجعله يفرق بينه وبينها... ومع كل هذه الدواعي، فقد آثر يوسف مرضاة الله ومراقبته، وحمله خوفه من خالقه على أن يختار السجن على ارتكاب ما يغضبه...»

2- صبره الجميل على المحن والبلايا، ولجوؤه إلى ربه ليستجير به من كيد امرأة العزيز وصواحبها: قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ...

3- نشره للدين الحق، ودعوته لعبادة الله وحده، حتى وهو بين جدران السجن، فهو القائل لمن معه في السجن: يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ، أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ....

4- حسن تدييره للأمر، وتوصله إلى ما يريد به بأحكام الأساليب، وحرصه الشديد على إنقاذ الأمة مما يضرها ويعرضها للهلاك، قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ...

5- عزة نفسه، وسمو خلقه، فقد أبى أن يذهب لمقابلة الملك إلا بعد إعلان براءته وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَنَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

- 6- تحدّثه بنعمة الله، ومعرفته لنفسه قدرها، وطلبه المنصب الذي يناسبه، ويثق بقدرته على القيام بحقوقه قال اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ.
- 7- ذكاؤه وفطنته، فقد تعرف على إخوته مع طول فراقه لهم: وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ...
- 8- عفوه وصفحه عن أساء إليه قال لا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ...
- 9- وفاؤه لأسرته ولعشيرته أذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ.
- 10- شكر الله- تعالى- على نعمه ومننه رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ.

ثانياً: وحدة التدبير في سورة القصص

1- بين يدي سورة القصص: سورة القصص هي السورة الثامنة والعشرون بحسب ترتيب المصحف العثماني، وهي السورة التاسعة والأربعون بحسب نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة النمل، وقبل سورة الإسراء، فكانت هذه (الطواسين) الثلاث متتابعة في النزول، كما هو ترتيبها في المصحف، وهي متماثلة في افتتاح ثلاثتها بذكر موسى عليه السلام. ولعل ذلك الذي حمل كتاب المصحف على جعلها متلاحقة. وهي ثمان وثمانون آية باتفاق العادين.

والسورة مكية في قول جمهور التابعين، وفيها آية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، (القصص:85)، قيل: نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في الجحفة في أثناء طريقه إلى المدينة للهجرة؛ تسلياً له على مفارقة بلده. وهذا لا يعارض أنها مكية؛ لأن المراد بـ (المكي) ما نزل قبل حلول النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، كما أن المراد بـ (المدني) ما نزل بعد ذلك، ولو كان نزوله بمكة. وقد أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت هي وآخر سورة الحديد في أصحاب النجاشي، الذين قدموا المدينة، وشهدوا وقعة أحد.

هي مكية كلها على ما روى الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة، وقال مقاتل: إلا من آية 52 إلى 55 فمدنية، وإلا آية 85 فقد نزلت بالجحفة أثناء الهجرة إلى المدينة، وآيها ثمان وثمانون، نزلت بعد النمل.

تسميتها:

"ثبت أن جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار"¹. والمعروف أن تسمية السور القرآنية على ما يبدو من أسمائها، كتسمية السورة بكلمة أو باشتقاق كلمة واردة فيها، وأن اختلاف المصاحف في تسمية بعض السور ناشئ عن تعدد الروايات الواردة في ذلك².

1- الإتيان في علوم القرآن. السيوطي. ت 911 هـ. الطبعة الثالثة. شركة مكتبة مصطفى الباي الحلبي وأولاده. مصر. 1951 م: 52/1.

2- ينظر المصاحف. أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني. ت 316 هـ. نشره: د. آرثر جفري. مطبعة الرحمانية. مصر. 1936 م: ص

ومن عادة العرب قديماً أن تراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من شيء نادر أو مستغرب، يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، ويسمون القصيدة بأشهر ما ورد فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن، لأن القرآن الكريم جاء على سنن العرب في كلامها وخطابها¹.

وسورة القصص سميت بذلك لاشتمالها على كلمة (القصص) في قوله تعالى: ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾⁽²⁾، أي: وقص موسى على شعيب⁽³⁾.

وهي السورة الوحيدة التي انفردت بذكر موسى (- عليه السلام -) وسبب هجرته من مصر إلى مدين، وهو المذكور بعد تفصيله بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾⁴.

فهي قصص موسى . عَلَيْهِ السَّلَام . وهو في مصر مع المصريين، وليس قصصه مع فرعون وقومه، ولعل هذا القصص الخاص هنا هو الوجه في تسمية السورة باسم (القصص)⁽⁵⁾.

وقيل: " سميت بدلالة قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾⁽⁶⁾ الدال على نجاة من هرب من مكان الأعداء إلى مكان الأنبياء، اعتباراً بقصصهم الدالة على نجاة الهاربين، وهلاك الباقين بمكان الأعداء، من الهلاك"⁷.

وتسمى أيضاً سورة (طسم) على ما ورد في بعض الروايات وتسمى أيضاً سورة موسى⁸، وهو رأي شاذ وأسماء السور توقيفية على ما ورد في صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ⁹، وبذلك تكون هذه السورة إنما سميت بدلالة لفظة عامة فيها خصصتها بالتسمية، وهو الصواب من الأقوال.

ولا يُعرف لهذه السورة اسم غير اسم سورة القصص. ووجه التسمية بذلك وقوع لفظ القصص فيها عند قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ الْقَصَصَ ﴾²⁵. فالقصص الذي أضيفت إليه السورة، هو قصص موسى الذي قصه على الرجل الصالح فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها، فلما حكى في السورة ما قصه موسى كانت هاتاه

1- الإتيان: 55/ 1.

2- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 25.

3- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. مجد اليدن مُحَمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي المتوفى سنة 817 هـ. تحقيق: مُحَمَّد علي النجار مطابع شركة الإعلانات الشرقية. القاهرة. 1383 هـ. 1963 م: 353/1.

4- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 25.

5- إلى القرآن الكريم. محمود شلتوت. دار الهلال. (د. ت): ص 111.

6- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 52.

7- محاسن التأويل. المُسَمَّى (تَفْسِيرِ الْقَاسِمِيِّ). تَأَلَّفَ مُحَمَّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْقَاسِمِيُّ. ت 1914 م. تصحيح وتعليق: مُحَمَّدُ فُؤَادُ عَبْدُ الْبَاقِي. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه. 1995 م: 4695/13.

8- مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير. جمع وتخريج أحمد أحمد البرزا، و مُحَمَّد بن برزق بن الطرهوني، و حكمت بشير ياسين. الطبعة الأولى. مكتبة المؤيد. السعودية. 1414 هـ. 1994 م، 3/ 329.

9- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الحفية. للعلامة الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي المشهور بالجميل. المتوفى سنة 1204 هـ. مطبعة الاستقامة. القاهرة. (د. ت): 3/ 333.

السورة ذات قصص، فكان القصص متوغلاً فيها. وقد جاء لفاظ القصص (3) في سورة يوسف، غير أن سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة.

فضل السورة:

لم يصح حديث في فضل هذه السورة، لكن ذكر ابن إسحاق أنه قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلاً -أو قريباً من ذلك- من النصارى حين ظهر خبره في الحبشة، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، حتى استجابوا له، وآمنوا به، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم من أمره، ويقال: فيهم نزلت هذه الآيات ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ (القصص:52).

مقاصد وموضوع سورة القصص:

قال سيد قطب: "هذه السورة مكية، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان. نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود، هي قوة الله؛ وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون، هي قيمة الإيمان. فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجرداً من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى؛ ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً.

ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء، وقصة قارون مع قومه - قوم موسى - في الختام، الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان. قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر؛ وفي مواجهتها موسى طفلاً رضيعاً لا حول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية. وقد علا فرعون في الأرض، واتخذ أهلها شيعاً، واستضعف بني إسرائيل، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وهو على حذر منهم، وهو قابض على أعناقهم. ولكن قوة فرعون وجبروته، وحذره ويقظته، لا تغني عنه شيئاً؛ بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير، المجرد من كل قوة وحيلة، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية، وتدفع عنه السوء، وتعمي عنه العيون، وتتحدى به فرعون وجنده تحدياً سافراً، فتدفع به إلى حجره، وتدخل به عليه عرينه، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه، مكفوف الأذى عنه، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه!

والقصة الثانية تعرض قيمة المال، ومعها قيمة العلم. المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته، وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاطحه لتعبي العصبية من الرجال الأقوياء. والعلم الذي يعتز به قارون، ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال. ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه، ولا تستخفهم زينته؛ بل يتطلعون إلى ثواب الله، ويعلمون أنه خير وأبقى. ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبيداره الأرض، لا يغني عنه ماله ولا يغني عنه علمه؛ وتتدخل تدخلاً مباشراً سافراً كما تدخلت في أمر فرعون، فألقته في اليم هو وجنوده فكان من المغرقين.

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجهروت الحكم والسلطان؛ ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجهروت العلم والمال. وكانت النهاية واحدة، هذا خسف به وبداره، وذلك أخذه اليم هو وجنوده. ولم تكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة. إنما تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حدا للبغي والفساد، حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد.

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا؛ ويخشى من الفتنة بالبأس والفتنة بالمال. عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية، بلا ستار من الخلق، ولا سبب من قوى الأرض، لتضع حد للشر والفساد.

وبين القصتين يجول السياق مع المشركين جولات يبصرهم فيها بدلالة القصص - في سورة القصص - ويفتح أبصارهم على آيات الله الماثورة في مشاهد الكون تارة، وفي مصارع الغابرين تارة، وفي مشاهد القيامة تارة، وكلها تؤكد العبر المستفادة من القصص، وتساوقها وتناسق معها؛ وتؤكد سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان. وقد قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: {إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا}. فاعتذروا عن عدم اتباعهم الهدى بخوفهم من تخطف الناس لهم، لو تحولوا عن عقائدهم القديمة التي من أجلها يخضع الناس لهم، ويعظمون البيت الحرام ويدينون للقائمين عليه.

فساق الله إليهم في هذه السورة قصة موسى وفرعون، تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة؛ وتعلمهم أن الأمن إنما يكون في جوار الله، ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس؛ وأن الخوف إنما يكون في البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس! وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى وتؤكدها.

وعقب على مقالته (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون..) يذكرهم بأنه هو الذي آمنهم من الخوف فهو الذي جعل لهم هذا الحرم الآمن؛ وهو الذي يديم عليهم أمنهم، أو يسلبهم إياه؛ ومضى ينذرهم عاقبة البطر وعدم الشكر (وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين)، ويخوفهم عاقبة أمرهم بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولا. وقد مضت سنة الله من قبل بإهلاك المكذبين بعد مجيء النذير: {وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون}.

ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رءوس الأشهاد؛ فيبصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا؛ وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان. وتنتهي السورة بوعد من الله لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارد من المشركين بأن الذي فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه، لا بد راده إلى بلده، ناصره على الشرك وأهله. وقد أنعم عليه بالرسالة ولم يكن يتطلع إليها؛ وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذي أخرجه منه المشركون. سيعود آمنا ظافرا مؤيدا. وفي قصص السورة ما

يضمن هذا ويؤكد. فقد عاد موسى - عليه السلام - إلى البلد الذي خرج منه خائفاً طريداً. عاد فأخرج معه بني إسرائيل واستنقذهم، وهلك فرعون وجنوده على أيدي موسى وقومه الناجين.

ويجتم هذا الوعد ويختم السورة معه بالإيقاع الأخير: ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾.

هذا هو موضوع السورة وجوها وظلالها العامة. اهـ.

مناسبات السورة ووجه مناسبتها لما قبلها أمور:

(1) إنه سبحانه بسط في هذه السورة ما أوجز في السورتين قبلها من قصص موسى عليه السلام وفصل ما أجمله هناك، فشرح تربية فرعون لموسى وذبح أبناء بني إسرائيل الذي أوجب إلقاء موسى حين ولادته في اليمّ خوفاً عليه من الذبح، ثم ذكر قتله القبطي، ثم فراره إلى مدين وما وقع له مع شعيب من زواجه بنته، ثم مناجاته لربه.

(2) إنه أحمل في السورة السالفة توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة وبسطه هنا أتم البسط.

(3) إنه فصل هناك أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط، وأجمله هنا في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ﴾ الآيات.

(4) بسط هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة، وأوجز ذلك هنا، وهكذا من المناسبات التي تظهر بالتأمل حين قراءة السورتين.

التناسب والتناسق بين سورة القصص وما قبلها وما بعدها.

لا ريب أن فهم العلاقة التناسبية والروابط المتناسقة بين كل سورة قرآنية وما قبلها وما بعدها مما يعين على فهم أدق لجوهر السورة نفسها إذا ما أخذنا بالرأي الراجح القائل إن الصحابة لم يضعوا سورة معينة في موضع إلا بإشارة من رسول الله (- صلى الله عليه وسلم -). والرسول (- صلى الله عليه وسلم -) لم يضعها إلا بوحى إلهي.

ولذا نجد أن هناك وشائج بين أواخر سورة النمل وأوائل سورة القصص بحديثهما معاً عن تلاوة القرآن، ﴿وَأَنْ أتلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ (سورة القصص: الآية 88)، ﴿و تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ تتلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ (سورة النمل: الآية 92)، وحديثهما عن منة الله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (سورة القصص: الآية 2-3)، ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (سورة القصص: الآية 5)، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا رَكُّكَ بِعَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة النمل: الآية 93)، فقد تناسب مع قوله تعالى: ﴿فِي سُورَةِ الْقَصَصِ﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ (سورة القصص: الآية 4).

إذ تناسب الكلام عن عدم غفلة الله تعالى وحاشاه عن افعال العباد، وعن علو فرعون في الأرض ثم تناسب أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِعَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾¹، مع أوائل السورة في ايراد الاحرف المقطعة التي لا يعلمها إلا الله تعالى ﴿ طسم ﴾²، وليس بينهما الا فاصل البسملة فكل هذا يرجح الرأي الذي نذهب اليه من ان القرآن الكريم قطعة واحدة، في السبك والصيغة والبلاغة، ولعل هذا أحد أوجه إعجاز القرآن الكريم التي طالما نبه عليها المفسرون والمتكلمون واللغويون، فاذا ما جئنا الى اخر سورة القصص وأوائل سورة العنكبوت نجد تشابهاً جد عظيم، وتناسقاً كبيراً، وتناسباً في المعنى والمبنى والمضمون والسبك والصيغة فكان أوائل سورة العنكبوت إمتداد لآخر سورة القصص فنجد أن هنالك حديثاً عن العودة الى الله تعالى كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾⁽³⁾، وقوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: الآية 5)، وكلام عن الفتنة ﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 87)، وذلك مرتبط بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: الآية 3.. فالحديث هو هو لا زال متسقاً مترابطاً متماسك الصيغة.

ونجد كلاماً عن الايمان الالهي في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 88)، وذلك مع قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: الآية 7). فإن وجه المناسبة بينهما في عدم دعوة إلهاً آخر مع جزاء الإيمان والعمل الصالح.

ونجد كلاماً مهماً عن الدعوة الى الله تعالى ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 87). يتناسب مع قوله تعالى في أوائل سورة العنكبوت ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: الآية 6)، وبذلك كله يستقيم لنا ترابط سورة القصص وتناسقها وتناسبها مع أواخر ما قبلها (النمل) ومع أوائل ما بعدها (العنكبوت)، وذلك بعض أوجه الاعجاز القرآني، لأنه مما يرد على أولئك القائلين باضطراب النصّ القرآني في انتقال الخطاب⁴، فسُورَةُ الْقَصَصِ في تناسبها أوجدت تناسباً ووحدة في الموضوع في أوائلها وأواخرها.

التناسب بين بداية السورة وخاتمتها:

مذهب العرب في نظم الكلام أن يوازنوا كل الموازنة بين مطلعها ونهايتها، لأجل أن يستقيم الكلام ولا يخرج أوله عن آخره، ولا آخره عن أوله، وهذا المذهب البلاغي تنبه له قدماء البلاغيين كالجاحظ⁵، وأبي هلال العسكري¹ وقدامة بن جعفر²، وابن المعتز³ وابن الأثير⁴.

1- سُورَةُ النَّملِ: الآية 93.

2- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 1.

3- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 85.

4- الْقُرْآنُ وَالْكِتَابُ. الأب الحداد. الطبعة الثانية. (د. د. ن.). بيروت، لبنان. 1986 م: 135-137.

5- ينظر البَيَانُ والتبيين. أبي عثمان عمرو بن بحر. ت 255 هـ. تحقيق: الحامي فوزي عطوي. دار صعب. بيروت. ط 1. 1968 م: 1/ 20.

وقد جاء القرآن الكريم على سنن العرب في كلامها في فنونه البديعة، وأفانينه البلاغية البيانية، وكان من ذلك أن يستقيم المعنى في أول السورة وآخرها بحيث يأخذ أولها برقبة آخرها لأجل أن يظهر الإعجاز القرآني⁵.

وقد فصل بعض ذلك البقاعي في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)⁶، و السيوطي في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور)⁷. ونجد في سُورَةِ الْقَصَصِ . التي نقوم هنا بتحليلها . أنها جاءت على هذه السنة في الأسلوب العرضي لمادتها الداخلية، ويتضح ذلك أكثر ما يتضح باستعراض مبادئ هذه العلاقة المترابطة بين فاتحة السورة وخاتمتها، وتشمل هذه المبادئ المتشابهة:

- ذكر الآيات الإلهية مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 2.، وقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَاكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَّ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. المقابلة بين الإيمان والكفر، كما في قوله: ﴿نَتَلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 3، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾⁸.

- ذكر عاقبة العلو، كما في قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 4، وقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁹ بيان الوراثة الإيمانية، كما في قوله تعالى: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (3)، وقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾¹⁰. كون كل طغيان يعقبه هلاك كل شيء يطغى به، كما في قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا

1- ينظر كتاب الصناعتين: النظم والشعر، العسكري، أبو هلال الحسن ابن عبد الله بن سهل ت 395 هـ، تحقيق: مُحَمَّد علي الجاوي ورفيقه، الطبعة الأولى، مطبعة الأستانة، 1952م: ص 149.

2- ينظر نقد الشعر. أسامة بن منقذ. تحقيق: مُحَمَّد زغلول سلام. الطبعة الثانية. بيروت، لبنان. مصورة عن طبعة مصر. 1975 م: ص 29.

3- ينظر نقد الشعر: ص 38.

4- ينظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ضياء الدين نصر الله بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عَبْد الكَرِيم الموصلي أبو الفتح. ت 637 هـ. تحقيق: مُحَمَّد محبي الدين عَبْد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت. ط1. 1995 م: 2 / 104.

5- ينظر الإعجاز القرآن. مُحَمَّد بن الطيب بن مُحَمَّد بن جعفر بن القاسم الباقلاي أبو بكر. ت 403 هـ. تحقيق: السيد أحمد صقر. دار المعارف. القاهرة. (د. ت) : ص 196.

6- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. الإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي. ت 885 هـ. خرج الآيات وأحدثه ووضع حواشيه: عَبْد الرَّزَّاق غالب المهدي. الطبعة الأولى دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. 1995 م: 1 / 126.

7- تناسق الدرر في تناسب السور. جلال الدين السيوطي. ت 911 هـ. ط2. تحقيق: عَبْد الله مُحَمَّد الدرويش. دار عالم الكتب. بيروت. لبنان. 1408 هـ - 1987 م: 1 / 216.

8- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 87.

9- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 5.

10- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 83.

يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾، وقوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 88.

-المقابلة بين عودة موسى (- عليه السلام -) إلى أمه، وعودة رسول الله (- صلى الله عليه وسلم -) إلى مكة كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَضَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾² وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾³، فموسى (- عليه السلام -) عاد إلى أمه، ورسول الله (- صلى الله عليه وسلم -) عاد إلى أم القرى، وهو معنى استنبطناه من السياق. فهذه المبادئ المتشابهة في حد ذاتها بين فواتح السورة وخواتيمها تدل على ما ذهبنا إليه، فسنرى مثلاً أن العلاقة بين قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾⁴ في إشارتها إلى القرآن الكريم، وما أنزل على الرسل من قبل . عَلَيْهِم السَّلَام . تماثل العلاقة مع قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ { (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 87)، كونها إشارة إلى آيات الله تعالى التي أنزلت على رسول الله (- صلى الله عليه وسلم) .

ثم أن هنا علاقة وثيقة بين قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 4) وبين قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 87). لأن المفسدين مقابل لفظي للمشركين، والعلاقة بينهما علاقة تضاد الإفساد بالشرك، وهي علاقة مترابطة ترابط الإفساد والشرك.

ونجد أن قوله تعالى: ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 3، موافق تمام الموافقة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 86)، لأن التلاوة الإلهية متعلقة بما ألقى على رسول الله (- صلى الله عليه وسلم -) من الكتاب المتلو رحمة. ونجد أن قوله تعالى: ﴿ بِالْحَقِّ لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 2) موافق في دلالاته المتناسقة مضمونياً مع قوله تعالى: ﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 88)، لأن من صفات المؤمنين أنهم يؤمنون برجوعهم لله سبحانه وتعالى، وهذا اتساق في المعنى.

نجد كذلك أن الآية: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 5). مطابقة في تناسبها المضموني مع الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 85) في كون الآيتين تتحدثان عن الوراثة الإلهية والعودة النبوية، فكما ورث بنو إسرائيل ما تركه آل فرعون، ورث المؤمنون من أصحاب محمد (- صلى الله عليه وسلم -) أرضاً لم تورث إلا لهم، وهذا من الاتفاقات الإلهية التي انفردت سورة القصص بإظهارها في أبان العصر المكي.

1- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 4.

2- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 7.

3- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 85.

4- سُورَةُ الْقَصَصِ: الآية 2.

ونحن نجد أن قوله تعالى في فاتحة سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً﴾ (سورة القصص: الآية 5). متعلقة في كون الإمامة هاهنا إمامة دعوية، أي: أئمة يدعون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو ما عبرت عنه الآية القرآنية في خاتمتها ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سُورَةِ الْقَصَصِ: الآية 87)، لأن الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هم أئمة الهدى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فصفات الدعوة إلى الله تَعَالَى بينت في سُورَةِ الْقَصَصِ، في أولها وفي آخرها.

ونجد أن صفات المؤمنين في أولها كانت:

الإيمان ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سُورَةِ الْقَصَصِ: الآية 2، والورثة ﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (سُورَةِ الْقَصَصِ: الآية 5)، والتمكين في الأرض ﴿وَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (سُورَةِ الْقَصَصِ: الآية 6)، ثم نجد في خاتمة السورة أن صفات المؤمنين هي: الإيمان ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سُورَةِ الْقَصَصِ: الآية 87)، والورثة ﴿لِرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (سُورَةِ الْقَصَصِ: الآية 85)، والتمكين في الأرض ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سُورَةِ الْقَصَصِ: الآية 83).

وبهذا يتضح هذا التناسق بين أول السورة وآخرها، ثم أننا نجد أمراً آخرًا هو إظهار عاقبة الطغاة والمتكبرين والمفسدين في الأرض، لقوله تعالى: ﴿وَأُتْرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾، ويقابله في آخر السورة قوله تعالى: ﴿فَحَسْبُنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضُ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، لأن { وَجُنُودَهُمَا } متقابلة كلّ التقابل مع (فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أي: الجنود الذين كانوا يحرسون قارون، وهذا اتساق بياني في المعنى المتوافق.

وبهذا يكون أول السورة مترابطاً كلّ الترابط مع آخرها، ومتناسباً معه بما يجعل من داخل السورة وحدة متكاملة في مبنائها ومعناها، وهو بعض أوجه الإعجاز القرآني.

ثانياً: الحديث الموضوعي

وفيه:

- 1- المسيح عليه السلام في الحديث النبوي دراسة موضوعية.
- 2- عقيدة المهدي المنتظر في الحديث النبوي.
- 3- القضاء والقدر من خلال السنة النبوية.
- 4- حقيقة الشرك من خلال الحديث النبوي - صحيح مسلم - أمودجا.
- 5- حقيقة الكفر من خلال السنة النبوية دراسة موضوعية.

المحاضرة التاسعة

الدرس الأول

عيسى عليه السلام في الحديث النبوي دراسة موضوعية

أولاً: جمع الروايات والأحاديث في الموضوع

- روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ” أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد “. وفي رواية مسلم: فليس بيننا نبي. وفي رواية للبخاري: ليس بيني وبينه نبي.

- وروى الحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وليس بيني وبين عيسى بن مريم نبي). قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين¹.

- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل. رواه البخاري ومسلم. وفي رواية: من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء. وزاد ابن المديني في روايته ” وابن أمته “.

قال النووي: هذا حديث عظيم الموقع , وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه جُمع فيه ما يخرج عنه جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباغدهم.

ووصفه بأنه ” منه ” كقوله تعالى: (وسخر لكم ما في الأرض جميعاً منه) فالمعنى أنه كائن منه كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه، أي أنه مُكون كل ذلك وموجده بقدرته وحكمته.

وقوله: ” على ما كان من العمل ” أي من صلاح أو فساد، لكن أهل التوحيد لا بُد لهم من دُخول الجنة، ويُحتمل أن يكون معنى قوله: ” على ما كان من العمل ” أي يدخل أهل الجنة الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات.

في رفعه وموته

¹- ومستدرك الحاكم 315/3، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس، وقاله الضحاك.

وقد أخرج ابن أبي حاتم والنسائي عن ابن عباس قال كان عيسى مع اثني عشر من أصحابه في بيت فقال إن منكم من يكفر بي بعد أن آمنتم قال أيكم يلقي عليه شبيهي ويقتل مكاني فيكون رفيقي في الجنة، فقام شاب أحدثهم سنا فقال أنا قال اجلس ثم عاد فعاد فقال اجلس ثم فعاد الثالثة فقال أنت هو فألقي عليه شبهة فأخذ الشاب فصلب بعد أن رفع عيسى عليه السلام من روزنة في البيت وجاء الطلب من الكفار فأخذوا الشاب. وهذا اسناده صحيح. والروضة نافذة في السطح يصعد إليها في زاوية من البيت تكون.

أما ما يرويه بعضهم من أن يهوديا جاء مع اليهود ليدلهم ووعده مبلغ كذا من المال ثم لما أدخلهم إلى البيت ألقى عليه شبهة المسيح فظنوه هو المسيح فقتلوه فهذا غير ثابت لكنه مشهور عند المؤرخين والصحيح هو ما قاله عبد الله بن عباس.

نزول المسيح عيسى عليه السلام.

قال الله تعالى: [وإنه لعلمٌ للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراطٌ مستقيمٌ] الزخرف 61.

روى ابن حبان عن ابن عباس عن النبي في قوله تعالى: وإنه لعلمٌ للساعة، قال: نزول عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة.

قال مجاهد ” وإنه لعلم للساعة ” أي آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم وقد اشتهرت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحكمًا مقيسطًا. وقوله تعالى ” فلا تمترن بها ” أي لا تشكوا فيها إنها واقعة وكائنة لا محالة ” واتبعون ” أي فيما أخبركم به.

عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذاكرون قالوا نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف بالشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم. رواه مسلم.

وفي البخاري ومسلم أن أبا هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ” والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكيمًا عدلًا ” ثم يقول أبو هريرة وقرأوا إن شئتم [وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا]¹.

¹- البخاري، ج3، ص : 223. و رواه مسلم 321.

قوله: (لِيُوشَكْنَ) فهو بضم الياء وكسر الشين أي ليقربن أي لا بُد من ذلك سريعًا، قوله: (أن ينزل فيكم) أي في هذه الأمة، فإنه خطاب لبعض الأمة ممن لا يُدرك نُزُوله. قوله: (حكمًا) أي حاكمًا , والمعنى أنه ينزل حاكمًا بهذه الشريعة لا ينزل برسالةٍ مُستقلة، وشريعة ناسخة، فإن هذه الشريعة باقية لا تُنسخ، بل يكون عيسى حاكمًا من حُكام هذه الأمة، وفي رواية الليث عن ابن شهاب عند مُسلم ” حكمًا مُقسطًا ” وله من طريق ابن عُيينة عن ابن شهاب ” إمامًا مُقسطًا “ والمقسط العادل، يُقال: أقسط يُقسط إقساطًا فهو مُقسط إذا عدل والقسط بكسر القاف العدل، وقسط يقسط قسطًا بفتح القاف فهو قاسط إذا جار. فالمقسط العادل بخلاف القاسط فهو الجائر. ولأحمد من وجه آخر عن أبي هُريرة ” أقرئوه من رسول الله السلام ” وعند أحمد من حديث عائشة ” ويمكث عيسى في الأرض أربعين سنة ” وللطبراني من حديث عبد الله بن مُغفل ” ينزل عيسى ابن مريم مُصدقًا بمحمد على ملته ”.

ولقد جاءت أحاديث وروايات كثيرة جدا في نزول عيسى عليه السلام، فلا يخفى على كُل مُنصف أن نُزول عيسى ابن مريم عليه السلام إلى الأرض حكمًا مُقسطًا بذاته الشريفة ثابت بالأحاديث الصحيحة والسنة المطهرة واتفاق أهل السنة وأنه الآن حي في السماء لم يمُت بيقين.

وأما ثبوتُه من الكتاب فقال الله عز وجل ردا على من زعموا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليه السلام: {وما قتلوه يقينًا بل رفعه الله إليه} ففي هذه الآية الكريمة أخبرنا الله تعالى أن الذي أراد الكفار قتله وأخذه وهو عيسى بجسمه وروحه لا غير رفعه الله إليه ولم يظفروا منه بشيء كما وعده الله تعالى قبل رفعه بقوله: {وما يضرونك من شيء} ورفع جسده حيا فسرهُ ابن عباس كما ثبت عنه بإسنادٍ صحيح.

فثبت بهذا أن عيسى عليه السلام رُفِع حيا ويدل على ما ذكرناه الأحاديث الصحيحة المذكورة , المصرحة بنُزوله بذاته الشريفة , التي لا تحتمل التأويل.

وقال الله تعالى: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} أي قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام كما قال أبو هُريرة وعبد الله بن عباس وغيرهما من الصحابة والسلف الصالحين وهو الظاهر كما قال بعض المفسرين , فثبت أن عيسى عليه السلام لم يمُت بل يمُوت في آخر الزمان ويؤمن به كُل أهل الكتاب.

فهذه الآيات الكريمة والنصوص الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل دلالة واضحة على نُزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء إلى الأرض عند قُرب الساعة ولا يُنكر نُزوله إلا ضال مُضل مُعانِد للشرع مُخالف لكتاب الله وسُنّة رسوله واتفاق أهل السنة.

المحاضرة العاشرة

المهدي المنتظر في السنة النبوية

1- اسمه ونسبه:

الإمام المهدي هو رجل صالح من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم، يكون في آخر الزمان، يصلح الله به أمر الناس، ويملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، واسمه على اسم النبي صلى الله عليه وسلم، واسم أبيه على اسم أبي النبي صلى الله عليه وسلم، فهو محمد بن عبد الله المهدي، أو أحمد بن عبد الله المهدي، وينتهي نسبه إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما، وعلامة ظهوره فساد الزمان، وامتلاء الأرض بالظلم والعدوان ...)

1- أدلة ظهوره وخروجه:

لقد جاءت الأحاديث الصحيحة الدالة على ظهور المهدي عليه السلام، وأنه سيكون في آخر الزمان وهو علامة من علامات الساعة وشرط من أشراتها ومن هذه الأحاديث:

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحاً وتكثر الماشية وتعظم الأمة، يعيش سبعمائة أو ثمانمائة يعني حجاً (أي سنين)"¹، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه.
- وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة"².

- عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ (انحسار الشعر عن مقدمة الجبهة) أَقْفَى الْأَنْفِ (أي أنفه طويل رقيق في وسطه حذب) يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ"³.

- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَقُولُ الْمَهْدِيُّ مِنْ عَثْرَتِي (أي من نسي وأهل بيتي) مِنْ وَدِدِ فَاطِمَةَ"⁴.

1- مستدرک الحاكم 557/4-558

2- . مسند أحمد 58/2 ح 645 تحقيق أحمد شاکر وقال : { إسناده صحيح } وسنن ابن ماجه 1367/2

3- . سنن أبي داود - كتاب المهدي 375/11 ح 4265 . ومستدرک الحاكم 557/4 وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

4- سنن أبي داود 373/11 . وسنن ابن ماجه 1368/2.

- وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي تعال صل بنا، فيقول: لا إن بعضهم أمير بعض تكرمه الله لهذه الأمة". والحديث في صحيح مسلم بلفظ: "فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا فَيَقُولُ لَا إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَمْرَاءُ تَكْرِمَةً اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ"¹.

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا تَذْهَبُ أَوْ لَا تَنْقُضِي الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمَهُ اسْمِي"². وفي رواية: "يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي"³.
وقد تواترت الأحاديث بظهور المهدي تواتراً معنوياً، كما نصَّ على ذلك بعض الأئمة والعلماء وفيما يلي ذكر طائفة من أقوالهم:

- قال الحافظ أبو الحسن الآبري: "قد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر المهدي وأنه من أهل بيته وأنه يملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلاً، وأن عيسى عليه السلام يخرج فيساعده على قتل الدجال وأنه يوم هذه الأمة ويصلي عيسى خلفه".

- وقال العلامة محمد السفاريني: {وقد كثرت بخروجه - أي المهدي - الروايات حتى بلغت التواتر المعنوي، وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عد من معتقداتهم}. ثم ذكر طائفة من الأحاديث والآثار في خروج المهدي وأسماء بعض الصحابة ممن رواها ثم قال: {وقد روي عن ذكر من الصحابة وغير من ذكر منهم رضي الله عنهم بروايات متعددة، وعن التابعين من بعدهم ما يفيد مجموعته العلم القطعي، فالإيمان بخروج المهدي واجب كما هو مقرر عند أهل العلم ومدون في عقائد أهل السنة والجماعة .

- وقال العلامة المجتهد الشوكاني: {الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدّق وصف التواتر على ما هو دونها في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصراحة بالمهدي فهي كثيرة أيضاً لها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك}.

- وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: {والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة وكذا الواردة في الدجال وفي نزول سيدنا عيسى بن مريم عليهما السلام⁴}.

3- تلخيص جملة ما جاء في المهدي عن النبي ﷺ:

يمكن أن نلخص أهم النقاط التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم عن المهدي كالاتي:

¹- رواه مسلم 225.

²- مسند أحمد 199/5 ح 3573

³- سنن أبي داود 370/11.

⁴- أنظر كتاب أشراف الساعة ل/ يوسف بن عبد الله الوابل، ص 195- 203

أ. أنه من ولد فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذرية الحسن بن علي رضي الله عنه، واسمه محمد بن عبد الله.

ب. أنه يخرج في آخر الزمان، مصاحباً لنزول عيسى عليه السلام، ومقتل الدجال.

ت. أنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملأت جوراً وظلماً.

ث. يمكث سبعاً، أو ثمانياً من السنين؛ وتكثر الخيرات في زمنه.

ج. ينصر الله به الإسلام، والمسلمين، وتكون العزة في الأرض لأهل الإسلام.

ح. وَصَفَهُ النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أَجَلَى الْجُبْهَةِ (انخسار الشَّعر عن مقدِّمة الجبهة)، أَقْنَى الْأَنْفِ (أي: أنفه طويل رقيق في وسطه حذب).

خ. يعتصم بالبيت الحرام، ويغزوه جيشٌ يُخسِف به بين مكة والمدينة.

د. وهو لا يدعي المهدي لنفسه، وإنما الناس يبايعونه لدلائل يرونها فيه.

ذ. يصلي خلفه عيسى عليه السلام.

فلمعرفة هذا الشخص: لا بد أن ننظر إلى تحقق هذه الصفات التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم عنه، فإن تحققت به: فهو من أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا فهو كاذب في سلسلة الكذابين.

4- هل نترك العمل بانتظار خروج المهدي ليعز - الله - به الإسلام؟؟:

إن هذه الحال المزرية التي وصلت إليها الأمة الإسلامية اليوم، حال يندى لها الجبين، وكل المسلمين مسئول عن إصلاح هذا الوضع، غير أن بعض المسلمين يعطل العمل، اكتفاءً بالأمل، ويهرب من إصلاح الواقع المرير للأمة بحجة أنه تسبب فيه من قبلنا، وسيصلحه من بعدنا!! ويتوقف عن السعي للتمكين لدين الله، بحجة أن المهدي هو الذي سيفعل.

إنه هروب إلى الأمان مع تعطيل الأسباب الشرعية، والله تعالى يقول: (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) النساء/123.

فإن الله تعالى أمر المسلمين بالعمل لهذا الدين، والدعوة إلى الله، ومجادلة الكفار ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وقتالهم حتى لا يكون شرك على الأرض، قال الله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتِهَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) الأنفال/39.

قال ابن كثير رحمه الله:

أمر تعالى بقتال الكفار حتى لا تكون فتنة أي شرك ويكون الدين لله أي يكون دين الله هو الظاهر على سائر الأديان اهـ.

وبعض الناس يسيء فهم هذه الأحاديث الواردة في خروج المهدي أو نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فيتواكل ويترك العمل ويجلس منتظراً لخروج المهدي أو نزول المسيح فيترك الدعوة إلى الله... والعمل لإعلاء كلمة

الله. وقد أمر الله تعالى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأخذ بالأسباب والسعي في الأرض والعمل. قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا) النساء/71 قال سبحانه: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) الأنفال/60.

وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَدُّ لكل أمر عدته ويرسم له خطته، كما حدث في رحلة الهجرة فقد أعدّ الرواحل والدليل واختار الرفيق، وحدد مكان الاختفاء إلى أن يهدأ الطلب، وأحاط ذلك كله بسياج من الكتمان، وكذلك كانت سيرته في غزواته كلها، وعليه ربي أصحابه الكرام، فكانوا يلقون عدوهم متحصنين بأنواع السلاح، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة والبيضة (الخوذة) على رأسه مع أن الله سبحانه وتعالى قال: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) المائدة/67. وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد.

ولنا أن نتخيّل الحال التي كان يمكن أن يؤول إليها مصير الدعوة والأمة لو أن الأجيال السابقة أصغوا إلى نداءات الاستسلام حتى يخرج المهدي، هل كانوا سيهزمون التتار والصليبيين ويفتحون القسطنطينية؟! وهذا الفهم الخاطئ للنصوص الشرعية الواردة في شأن المهدي والمسيح عليه السلام قد تصدى له كثير من العلماء والدعاة والكتاب.

المحاضرة الحادية عشر

القضاء والقدر من خلال السنة النبوية

إنَّ قضيَّةَ القضاء والقدر من أهمِّ القضايا التي ما زالت فيها الاجتهادات والآراء، وهي مدار علم الكلام، ومفترق الطرق، التي سلكتها المدارس والفرق الإسلامية.

وسيظلُّ الفلاسفة والمفكرُّون مختلفين، وإنَّ الاختلاف هو رُوح الفلسفة، وسبب وجودها، وعلة استمرارها. والفلسفة هي البحث عن الحقيقة من كَوْنٍ وإنسانٍ، وموقف الإنسان الوجودي ومصيره بعد الموت، ومدى حرّيته ومكانته في تحديد هذا المصير.

ومن أركان الإيمان الذي لا يستقيم إيمان عبد حتى يؤمن به على الوجه الذي دلت عليه النصوص: الإيمان بالقدر خيره وشره، كما في حديث علي رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني محمد رسول الله بعثي بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»، رواه ابن حبان في صحيحه، وتحقيق باب القدر من أسنى المقاصد، والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه.

الأحاديث الواردة في السنة النبوية عن القضاء والقدر:

قوله صلى الله عليه واله وسلم:

- 1- أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والقدر خيره وشره حلوه ومره¹.
- 2- أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره².
- 3- لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه³.
- 4- لا يؤمن العبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر⁴.
- 5- المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وكل على خير، احرص على ما ينفعك، ولا تعجز، فإن غلبك شيء؛ فقل: قدر الله وما شاء، وإياك واللوه؛ فإن اللو تفتح عمل الشيطان⁵.
- 6- المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل الخير، فاحرص على ما تنتفع به، واستعن بالله، ولا تعجز، فإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل؛ فإن اللو تفتح عمل الشيطان⁶.
- 7- لا عليكم أن لا تفعلوا فإن الله قدر ما هو خالق إلى يوم القيامة⁷.
- 8- قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة⁸.
- 9- إن ما قد قدر في الرحم سيكون⁹.
- 10- أخاف على أمتي من بعدي ثلاثا: حيف الأئمة و إيماننا بالنجوم و تكذيبا بالقدر¹⁰.
- 11- ثلاثة لا يقبل الله منهم يوم القيامة صرفا و لا عدلا: عاق و منان و مكذب بالقدر¹¹.

1- صحيح، رواه ابن حبان في صحيحه، وعلق عليه الشيخ الالباني في التعليقات الحسان: 168 -
2- رواه ابن حبان في صحيحه، وعلق عليه الشيخ الالباني في التعليقات الحسان: 173 - صحيح.
3- أخرجه الترمذي [2: 21] وابن عدي في "الكامل" [1: 217] عن جابر، حديث صحيح.
4- رواه ابن حبان في صحيحه، وعلق عليه الشيخ الالباني في التعليقات الحسان: 178 - صحيح.
5- رواه ابن حبان في صحيحه، رقم 2331.
6- رواه ابن حبان في صحيحه، برقم 3321.
7- صحيح رواه ابن حبان، وعلق عليه الشيخ الالباني في التعليقات الحسان: 4181 - صحيح.
8- رواه ابن حبان في صحيحه، وعلق عليه الشيخ الالباني في التعليقات الحسان: 6105 - صحيح.
9- رواه النسائي عن أبي سعيد الزرقى. قال الشيخ الألباني: [حسن]، وانظر الحديث رقم: 2191 في صحيح الجامع، و1032 في السلسلة الصحيحة.
10- رواه ابن عساکر عن أبي محجن. قال الشيخ الألباني: [صحيح]، وانظر الحديث رقم: 214 في صحيح الجامع.
11- رواه ابن عساکر عن أبي محجن. قال الشيخ الألباني: [صحيح]، وانظر الحديث رقم: 214 في صحيح الجامع.

12- عن طاوس اليماني قال: أدركت ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: [كل شيء بقدر] قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كل شيء بقدر حتى العجز والكيس]¹.

أقوال السلف الصالح في القضاء والقدر:

عن وهب بن خالد عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعله أن يذهب من قلبي فقال: إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم ولو أنفقت مثل أحد في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لدخلت النار.

قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل قوله ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل قوله ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي صلى الله عليه وسلم.... مثل ذلك².

عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ فِي الْقَدْرِ. قَالَ: يَكْذِبُونَ بِالْكِتَابِ، لَنْ أَحَدٌ بِشَعْرٍ أَحَدِهِمْ لِأَنْصُوتَهُ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى عَرْشِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا، فَخَلَقَ الْخَلْقَ فَكَتَبَ مَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَإِنَّمَا يُجْرِي النَّاسَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ³.

عن أبي الأسود الديلي، قال: قال لي عمران بن الحصين، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم، قال فقال: أفلا يكون ظلما؟ قال: ففرغت من ذلك فرعا شديدا، وقلت: كل شيء خلق الله وملك يده، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: (لا، بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7-8].

فضل الايمان بالقضاء والقدر:

¹ - قال شعيب الارناؤوط في المسند: 5893: إسناده صحيح على شرط مسلم. وانظر غير مأمور، مسند الإمام أحمد بن حنبل [المتوفى: 241هـ]، تحقيق شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2001 م. 10: 133 - 134.

² - رواه ابن حبان في صحيحه، وعلق عليه الشيخ الالباني في التعليقات الحسان: 725 - صحيح.

³ - مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي [المتوفى: 748هـ]، حققه واختصره محمد ناصر الدين الألباني، الناشر المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية 1412هـ-1991م. ص 95، رقم: 29.

⁴ - رواه الامام مسلم: كتاب القدر - 2650.

إن المصائب التي يُصاب بها الخلق قدر مقدور، وقد أمر تعالى عباده بالصبر، ورتب على ذلك الثواب الجزيل فقال: (إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ).

وبعد الصبر تأتي منزلة أعظم وهي منزلة الرضا بالقضاء والقدر. وكان من دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم :- "أسألك الرضا بعد القضاء."

فضل الرضا وأهميته :

- 1- الرضا أساس الدين، فلا يسلم العبد حتى يرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - نبياً.
- 2- والرضا سبب لذوق طعم الإيمان، قال النبي - صلى الله عليه وسلم :- "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً.."
- 3- ثم إن الرضا ثمرة عظيمة لعمل قلبي عظيم وهو التوكل، فالرضا آخر التوكل.

معنى الرضا بالقضاء: هو التسليم وسكون القلب وطمأنينته وقضاؤه سبحانه كله عدل وخير وحكمه .

وليس من شرطه :

- 1- عدم الإحساس بالألم والمكاره، ومقام رسول الله صلى الله عليه وسلم أرفع فقد بكى حين مات ابنه إبراهيم وقال: إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون .
- 2- كما لا ينافي الرضا الدعاء برفع البلاء .

سبل الحصول على الرضا: التزام العبد بما جعل الله تعالى رضاه فيه، فإن هذا يوصل إلى مقام الرضا ولا بد. قال تعالى في الحديث القدسي: "وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته."

أن المصيبة علامة على محبة الله تعالى للعبد ولخيرته وسبب لتكفير ذنوبه وسبب لرفع منزلته في الجنة :

- 1- أن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه، وفي الحديث: إن علم الجزاء مع عظم البلاء وأن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم.
- 2- أن المصيبة سبب لتكفير الذنوب فقد ورد من حديث عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها."
- 3- كما أن المصيبة سبب لرفعة المنزلة.. عن أبي هريرة . رضي الله عنه . أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فيما يبلغها بعمل فلا يزال الله تعالى يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها."
- 4- كما أن المصيبة دليل على خيرة العبد، فإذا علم تعالى من عبده قدرة على تحمل المصيبة أصابه بها، إما لتكفير ذنوبه أو حتى ترتفع منزلته، وإن لم يكن له قدرة على تحملها لم يصبه رحمة به .
- 5- المصيبة نعمة من الله لا نقمة، إذ إنها رحمة من رب العالمين ليُذكر العبد من غفلته :

فقد روى أبو داود عنه . قال: جلست إلى النبي . صلى الله عليه وسلم . فذكر الأسقام فقال: "إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم عافاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة فيما يستقبل، وإن المنافق إذا مرض ثم أعفي كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه ولم أرسلوه ."

6- أن المصيبة إذا نزلت أضعفت المرء، وأهل الجنة هم المستضعفون :

ففي الصحيحين عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . من حديث حارثة بن وهب - رضي الله عنها - أنه قال: "ألا أخبركم بأهل الجنة وأهل النار، أهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار، كل عتل جواظ مستكبر ."

7- النظر إلى نعم الله تعالى التي لا تحصى: فنعم الله كثيرة والمصاب ما فقد بهذه المصيبة إلا إحدى النعم فيستحي أن لا يرضى وعنده كل هذه النعم.

8- الحمد لله، المصيبة ليست في الدين، وليست أعظم . فكيف لو انتكس الإنسان عن دينه - والعياذ بالله - ألم يكن دعاء النبي . صلى الله عليه وسلم .: "اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك"؟

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى علي فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه .

9- أن ينظر إلى حال من هو دونه وأشد منه في البلاء: فروى الترمذي عن النبي . صلى الله عليه وسلم . أنه قال: "انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم" والحديث صحيح كما في صحيح الجامع .

- ثمرات الرضا اليانعة:

أن الله تعالى يرضى عنه باليسير من العمل يوم القيامة، فالجزاء من جنس العمل، قال تعالى: (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ).

أن السخط باب الهم والغم والحزن وشتات القلب وفي الرضا سعة الصدر وراحته .

أن الرضا يفتح له باب السلام فيجعل قلبه سليماً نقياً فلا يحسد الناس على ما هم فيه من النعم: (نَحْنُ فَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ).

أن السخط يفتح له باب الشك في الله - والعياذ بالله - . وهو سبب الزيغ والانتكاس، بخلاف الرضا فإنه وقاية من ذلك، قال تعالى: [وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ].

أن الرضا يفرغ القلب لعبادة الله تعالى، بخلاف من اهتم بالمصاب فعقل عن العبادة، وأصبح قلبه مشغولاً بما فلا

يتدبر القرآن ولا يخشع في صلاته .

أن الرضا يثمر منزلة أعلى وهي الشكر .

خلاصة:

فإن المصائب قد تكون عقوبة من الله تعالى لعبد عصاه حتى يرتدع، أو ليخفف شره عن الناس .

كما أن الإنسان قد يتلى بعدم المصائب عقوبة له . والعياذ بالله . ويكون ذلك استدراجا له، ولذا كره السلف عدمها .

كما ينبغي للمرء أن يستغفر الله إذا وقعت عليه مصيبة ويتفقد حاله أن يكون عصا ربه ويكثر من الاستغفار ويتوب إليه .

وهل للمرء أن يدعو الله أن يصيبه بمصيبة تكفر عنه خطايا قبل يوم القيامة؟!!

وهل ندعو بالمصيبة؟!!

لا، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سُئل: أي الدعاء أفضل؟ فقال: "سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة".

وقال: "تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء".

هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المحاضرة الثانية عشر

حقيقة الشرك من خلال الحديث النبوي

- صحيح مسلم - أمودجا

جاء في صحيح مسلم في كتاب الإيمان باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده "حدثنا عثمان بن أبي شيبة وإسحق بن إبراهيم قال إسحق أخبرنا جرير وقال عثمان حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال قلت له إن ذلك لعظيم قال قلت ثم أي قال ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال قلت ثم أي قال ثم أن تزاني حليلة جارك"¹.

مظاهر الشرك:

أولاً: التبعيد لغير الله - تعالى - بصرف أي نوع من أنواع العبادة لغيره - سبحانه -، وأكثرها انتشاراً: دعاء غير الله - تعالى - من الأموات سواء كانوا أولياء صالحين أو غير ذلك، أو دعاء أصنام، أو أحجار، أو أشجار، أو قبور، أو أضرحة، أو مقامات أو غيرها، ومنه اعتقاد أنها تنفع أو تضر، وهذا شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام حتى لو كان صاحبه يعظم الله - تعالى - ويعبده في نفس الوقت الذي يدعو أو يسأل هولاء^٥ لأنه يكون والحال هذه قد أشرك مع الله - تبارك وتعالى - غيره في العبادة، ولأن الكفار الذين حاربهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مكة كانوا يعظمون الله - تعالى - ويعبدونه، ومع ذلك لم ينفعهم ذلك^٥ لأنهم كانوا يشركون معه آلهتهم المزعومة، والدليل قوله - تبارك وتعالى - عن المشركين: {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } (الزمر: 38) بل كان كفار قريش الذين قاتلهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعدون الأصل هو عبادة الله - تعالى - وتعظيمه، ولكنهم كانوا يدعون، ويدبحون، لآلهتهم المزعومة لتقربهم إلى الله زلفى، كما حكى عنهم الله - تعالى - بقوله: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيُقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (يونس: 18).

ثانياً: ومن مظاهر الشرك الأكبر المنتشرة في بلاد المسلمين: عبادة القبور بالاستغاثة بمن فيها من الموتى، أو الطواف بها، وما يلحق بذلك أثناء الطواف من التمسح بها، أو تقبيل أعتابها وتعفير بعضهم وجوههم في تراجمها، أو السجود لها أو عندها، فتراهم يقفون عندها متذللين متضرعين خاشعين سائلين حاجاتهم من شفاء مريض، أو

¹ - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم: 124.

تيسير حاجة، أو الحصول على وظيفة أو ولد، وكل ذلك من الشرك الأكبر^٥ لأن هذه حاجات لا يقدر عليها الأموات، وسؤالها منهم عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله - تعالى -.

ثالثاً: من مظاهر الشرك الأكبر: الذبح لغير الله، قال - تعالى -: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (الأنعام: 162/ 163) (نسكي. أي ذبحي)، وقال - صلى الله عليه وسلم -:(لعن الله من ذبح لغير الله) (رواه مسلم النووي13/150)، فمن ذبح لغير الله - تعالى - فقد أشرك سواء ذبح لولي، أو لقبر، أو لني أو لجن، أو لغيرهم، فقد أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - في هذه الآية أن يخبر الناس أن صلاته ونسكه وهو الذبح ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له، فمن ذبح لغير الله فقد أشرك بالله، كما لو صلى لغير الله^٥ لأن الله - تبارك وتعالى - جعل الصلاة، والذبح قرينين، وأخير أهما لله وحده لا شريك له، فمن ذبح لغير الله من الجن والملائكة أو الأموات أو غيرهم يتقرب إليهم بذلك فهو كمن صلى لغير الله، وقد يجتمع في الذبح نوعان من المحرمات: الذبح لغير الله والذبح على غير اسم الله، وكلاهما أو أحدهما يجعل الذبيحة محرمة لا يجوز الأكل منها. وهناك أناس يذبحون للجن حيث أنهم إذا اشتروا سيارة أو سكنوا بيتاً جديداً ذبحوا عنده أو على أعتابه ذبيحة خوفاً من أن يوذيهم الجن فيتقربون لهم بها أو يرضونهم بها، وهذه من ذبائح الجاهلية التي لا تجوز وهي شرك بالله.

رابعاً: ومن أهم مظاهر الشرك الأكبر التي ظهرت وانتشرت بين كثير من الناس في العصر الحديث وظهور التشريعات والقوانين الأوربية في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله: تحكيم القوانين الكافرة بدلا من التشريعات الإسلامية، أو اعتقاد أن أحداً يملك الحق في التحليل والتحريم غير الله - تبارك وتعالى -، أو قبول التحاكم إلى المحاكم والقوانين الوضعية عن رضا واختيار مستحلاً لذلك أو معتقداً بجواز ذلك، ويدخل في هذا من اعتقد أن هناك هدياً غير هدي نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وحكماً خيراً وأكمل من حكمه وشريعته التي جاء بها. ولما سمع عدي بن حاتم - رضي الله عنه - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتلو قوله - تعالى - {اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءْبَاءَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ} (التوبة: 31) فقال: إنهم لم يكونوا يعبدونهم قال: (أجل ولكن يجلون لهم ما حرم الله فيستحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم لهم) (رواه الترمذي وحسنه بشواهده في غاية المرام برقم 19).

خامساً: ومن مظاهر الكفر التي استهان بها الناس: السحر والكهانة والعرافة، قال - تبارك وتعالى -: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} (البقرة: 102) وكسب الساحر حرام، وحكم الساحر القتل ويشترك الساحر في الإثم الذين يذهبون إليه ليعمل لهم سحراً يعتدون به على الآخرين أو ينتقمون منهم، وكذلك لا يلجأ للسحرة لفك الذي عمله ساحر آخر، بل الواجب طلب الشفاء واللجوء إلى الله مثل المعوذات

وغيرها من كلام الله في القرآن والأدعية الثابتة الصحيحة، أما الكهان والعرافون الذين يدعون معرفة الغيب فهم كفار^٥ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله - تبارك وتعالى - قال - صلى الله عليه وسلم - : (من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) (رواه أحمد صحيح الجامع (5939) هذا حكم من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه، أما من يذهب إلى الكاهن أو العراف من باب التسلية أو التجربة دون أن يصدقهم فلا تقبل له الصلاة أربعين ليلة، أي أنه لا يؤجر على صلاته أربعين ليلة، مع وجوب أدائه لهذه الصلوات لتسقط عنه الفريضة بأدائها، ولكنه لا يؤجر عليها، قال - صلى الله عليه وسلم - : (من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) (رواه مسلم).

سادسا: من أخطر صور الشرك التي إذا غلا صاحبها فيها أصبحت من الشرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام: شرك المحبة أو الغلو في محبة المخلوقين. قال - تبارك وتعالى - : {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} (البقرة: 165) فمن أحب إنسانا، أو صنما، أو نظاما، أو غيره حتى أصبح يذل له ويقدم طاعته وحبه على حب الله - تعالى - وطاعته، ويقدم أمره ونهييه على أمر الله ونهييه، وقع في هذا النوع من الشرك بدون أن يشعر، فليحذر المسلم الغلو في محبة أي شيء كان، وليعلم أن كل طاعة وكل محبة يجب أن تكون مقيدة بأن لا تتعارض مع طاعة الله - تعالى - ومحبتة، ولا تقدم أي طاعة أو محبة على محبة الإنسان لله - تعالى - وطاعته ومحبة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وطاعته. وللشرك الأكبر صور ومظاهر أخرى، ولكننا ذكرنا أهمها وأكثرها انتشارا، وما ذكرت أنفا هو أحد مظاهر عدم فهمنا لديننا ولكنه أهمها وهناك مظاهر أخرى نسأل الله - تعالى - أن ييسر لنا الحديث عنها مستقبلا. هذا ما أحببت توضيحه نصيحة لإخواني المسلمين وعملا بواجب النصيحة لقلوبهم - صلى الله عليه وسلم - : (الدين النصيحة قالها ثلاثا قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم).

المحاضرة الثالثة عشر

تعريف الكفر في اللغة والشرع:

الكفر في اللغة: الستر والتغطية، قال ابن فارس: "الكاف والفاء والراء، أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية"¹.

وقال ابن الاثير: ((أصل الكفر تغطية الشيء تغطية تستهلكه"²).

وقد جاء إطلاق الكفر في اللغة على عدة تسميات، كلها ترجع إلى هذا المعنى، فأطلق على ((التراب))، لأنه يستر ماتحته، وعلى ((القيروالزفت)) الذي تظلى به السفن لسواده وتغطيته"³.

ومنه تسمية المزارع كافرا، قال تعالى: ((كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ)) الحديد (20)، أي: الزراع، وذلك لأن المزارع يستر البذر في الارض"⁴.

كما أطلق (الكافر) في اللغة على الليل، لانه يستر بظلمته كل شيء، وعلى البحر: لستره مافية، وعلى الوادي العظيم والنهر: للمعنى المتقدم في البحر، وعلى السحاب المظلم، لانه يستر الشمس، وعل الدرع، لأنه يستر البدن"⁵، ومنه "تسمية الكفارات بهذا الاسم، لأنها تكفر الذنوب، أي تسترها مثل كفارة الأيمان، وكفارة الظهار"⁶.

ثانيا: تعريف الكفر في الشرع:

وقد جاء تعريفه في كلام العلماء بعدة ألفاظ:

نقل الأزهري عن الليث في تعريفه، أنه: (نقض الايمان)⁷، وبه قال ابن فارس⁸، وقال الراغب الاصفهاني: "الكافر على الاطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوه، أو الشريعة، أو ثلاثتها"⁹، وقال بن حزم في تعريف الكفر في الشريعة: (جحد الربوبية وجحد نبوة نبي من الانبياء صحت نبوته في القرآن، او جحد شيء مما اتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما صح عند جاحده بنقل الكافة، أو عمل شيء قام البرهان بأن العمل به كفر"¹⁰.

1- معجم مقاييس اللغة لابن فارس (5- 191).

2- النهاية (807).

3- أنظر: لسان اللسان (5- 148).

4- أنظر: تهذيب اللغة للازهري (4- 3162)، والمفردات للراغب الاصفهاني (ص714).

5- أنظر: القاموس المحيط للفيروز أبادي (2- 128)، ولسان العرب لابن منظور (5- 148، 146).

6- أنظر: تهذيب اللغة للازهري (4- 3163).

7- تهذيب اللغة (4- 3160).

8- معجم مقاييس اللغة لابن فارس (5- 191).

9- المفردات (ص 715).

10- الفصل (3- 253).

وقال القرابي: (أصل الكفر إنما هو: إنتهاك خاص لحزمة الربوبية، إما بالجهل بوجود الصانع أو صفاته العلاء، ويكون الكفر بالفعل كرمي المصحف في القاذورات، أو السجود للصنم، أو التردد للكنايس في أعيادهم بزي النصرى، ومباشرة أحوالهم، أو جحد ما علم من الدين بالضروره)¹.

وقال ابن القيم: (الكفر جحد ما علم ان الرسول صلى الله عليه وسلم جاء به، سواء كان المسائل التي يسمونها علمية أو عملية، فمن جحد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بعد معرفته بأنه جاء به كافر في دق الدين وجله)².

وقال الكوفي: (الكفر لغة: الستر، وشريعة: عدم الإيمان عما من شأنه)³.

وهذه التعريفات، وإن اختلفت في ألفاظها، فهي متقاربة في المعنى، ومدارها على معنيين:

إما تعريف الكفر باعتبار مضادته للإيمان، كما في تعريف الليث والكوفي، وإما تعريف الكفر بجحد ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، كما في بقية التعريفات⁴.

كما يلاحظ على التعريفات أنها قد عرّفت الكفر، وحددت مفهومه في الشرع بما يقتضي حصره في الكفر الأكبر، وهذا هو حقيقة الكفر في الشرع عند الإطلاق، وإن كان يطلق مقيداً على الكفر الأصغر. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وفرق بين معنى الاسم المطلق، إذا قيل: كافر، أو: مؤمن، وبين المعنى المطلق للاسم في جميع موارد، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض)⁵. فقوله: (يضرب بعضكم رقاب بعض)، تفسير الكفار في هذا الموضع، وهؤلاء يسمون كفاراً تسمية مقيدة، ولا يدخلون في الاسم المطلق وإذا قيل: كافر، ومؤمن)⁶.

العلاقة بين المعنى اللغوي والشرعي للكفر: المعنى الشرعي للكفر مستقى من المعنى اللغوي للفظ الكفر، كما دلت على ذلك أقوال العلماء المحققين.

قال الليث: (إنما سمي الكافر كافرًا لأن الكفر غطى قلبه)⁷.

قال الزهري: (ومعنى قول الليث هذا يحتاج إلي بيان يدل عليه، وإيضاح: ان الكفر في اللغة معناه: التغطية، والكافر ذو الكفر، أي: ذو تغطية لقلبه بكفره، كما يقال للابس السلاح: كافر، وهو الذي غطاه السلاح .

1- الفروق (4- 1277)

2- مختصر الصواعق (ص620).

3- الكليات (ص763).

4- الإرشاد إلي معرفة الأحكام (ص 203 - 204)، هذا من باب تعريف الشيء ببعض أفراد، ولا يعني حصر الكفر في الجحود وسيأتي عند الحديث عن أنواع الكفر التفصيل في ذلك ، وأن الكفر قد يكون بالجحود أو العناد أو الإنكار أو النفاق أو الإعراض أو الشك ، كما يكون في الاعتقاد أو القول أو العمل . انظر (ص 94 - 109).

5- أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح (1 - 217) ، ح (121) ، ومسلم.

6- اقتضاء الصراط المستقيم (1 - 212).

7- انظر : تهذيب اللغة للزهري (4 - 3161) ، لسان العرب لابن منظور (5 - 145).

وفيه قول آخر أحسن مما ذهب إليه الليث، وذلك أن الكافر لما دعاه الله جل وعلا إلي من توحيد، فقد دعاه إلي نعمة ينعم بها عليه إذا قبلها، فلما رد ما دعاه إليه من توحيد، كان كافرًا نعمة الله، أي: مغطياً لها بإبائه¹. وقال ابن فارس: (والكفر ضد الإيمان، سمي لأنه تغطية الحق)²، فظهر بهذا ارتباط المعنى الشرعي للكفر بالمعنى اللغوي، وأن المعنى الشرعي مستمد من المعنى اللغوي، وإن اختلفت أقوال العلماء في وجه الترابط بينهما بعد اتفاهم أن معنى الستر والتغطية كامن في المعنى الشرعي، والله أعلم.

أنواع الكفر:

الكفر في الشرع نوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر.

النوع الأول: كفر أكبر يُخرج من الملة:

وهو جحد ما لا يتم الإسلام بدونه، وهو موجب للخلود في النار، ومخرج من الإيمان، ويكون بالاعتقاد، وبالقول، وبالفعل، وبالشك، وبالترك.

وهذا الكفر خمسة أنواع، هي:

- 1- كُفْرُ التَّكْذِيبِ: وهو اعتقاد كذب الرُّسل، والإخبار عن الحق بخلاف الواقع، أو ادعاء أن الرسول (ص) جاء بخلاف الحق، وكذلك من ادعى أن الله تعالى حرم شيئاً أو أحله مع علمه بأن ذلك خلاف أمر الله ونهيه.
- 2- كفر إباء واستكبار مع التصديق: وذلك بأن يقر أن ما جاء به الرسول (ص) حق من ربه؛ لكنه يرفض اتباعه أشراً وبطراً واحتقاراً للحق وأهله. أو مثل كفر إبليس؛ فإنه لم يجحد أمر الله ولم ينكره، ولكن قابله بالإباء والاستكبار.
- 3- كفر الشكِّ أو الظن: بأن لا يجوز بصدق النبي ولا كذبه؛ بل يشك في أمره، ويتردد في اتباعه؛ إذ المطلوب هو اليقين بأن ما جاء به الرسول (ص) من ربه حق لا مريبة فيه؛ فمن تردد في اتباعه لما جاء به الرسول (ص)، أو جوز أن يكون الحق خلافه؛ فقد كفر كفر شك وظن.
- 4- كفر الإعراض: بأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرُّسول (ص) لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغي إليه البتة. ويترك الحق لا يتعلمه ولا يعمل به، ويهرب من الأماكن التي يذكر فيها الحق؛ فهو كافر كفر إعراض.
- 5- كفر التَّفَاق: وهو إظهار الإسلام والخير، وإبطان الكفر والشر، أي: إظهار متابعة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مع رفضه وجحده بالقلب، فهو مظهر للإيمان به، مبطن للكفر، والمنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته.

¹ - تهذيب اللغة (4 - 3161).

² - معجم مقاييس اللغة لابن فارس (5 - 191).

والنفاق نوعان: نفاق اعتقاد، ونفاق عمل:

أولاً: نفاق الاعتقاد، أو النفاق الأكبر؛ وهو المخرج من الملة:

وهو أن يبطن الكفر في القلب، ويظهر الإيمان على لسانه وجوارحه، وصاحبه من أهل الدرك الأسفل من النار، مثل من كذب بما جاء به الله، أو بعض ما جاء به الله، وكذب الرسول ﷺ، أو بعض ما جاء به الرسول، وكمثل من لم يعتقد وجوب طاعته ﷺ، أو أبغض الرسول ﷺ، أو كره الانتصار للدين أو سر بكسر راية الدين.. إلى غير ذلكم.

ثانياً: نفاق العلم، أو النفاق الأصغر؛ وهو غير المخرج من الملة:

وهو النفاق العملي، وذلك بعمل شيء من أعمال المنافقين؛ مع بقاء الإيمان في القلب، وصاحبه لا يخرج من الملة، مثل: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر؛ كما جاء في الأحاديث النبوية.

هذه حالات الكفر التي يعتبر بها العبد كافرًا.

ولتقريب الصورة إلى الأذهان؛ يمكن تقسيم الكفر الأكبر إلى ثلاثة أقسام مع الأمثلة، وهي:

الأول – الكفر بالاعتقاد: ويكون بمجرد الاعتقاد في القلب، وإن لم يتكلم أو يفعل شيئًا، وأسبابه كثيرة نذكر منها:

- 1- الجحْد أو الشك في وجود الله تعالى، أو في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته، أو أن يعتقد أنه لا بأس أن يُدعى مع الله غيره، ويستغاث به.
- 2- التكذيب أو الشك في رسالة محمد ﷺ وجحدِ عموم رسالته، وختمه للنبوّة.
- 3- الشك في شيء من أركان الإسلام الخمسة، أو أركان الإيمان الستة، أو الجنة، أو النار، أو الثواب والعقاب، أو الجن أو الملائكة. أو شيء مما هو مجمع عليه كالإسراء والمعراج، وغيرها.
- 4- إنكار حرف من القرآن، أو اعتقاد زيادة حرف فيه.
- 5- الإيمان بشريعة غير الإسلام، واعتقاد صلاحيتها للبشر.
- 6- الإيمان بحلول الله تعالى في خلقه، أو وصف الله بصفة يجب تنزيهه عنها؛ كالشريك، أو الزوجة، أو الولد.
- 7- اعتقاد عدم وجوب شيء معلوم من الدين بالضرورة؛ كالصلوات الخمس، والزكاة، والصوم، والحج، وغيرها.
- 8- اعتقاد تحريم مباح معلوم من الدين بالضرورة؛ كالبيع والنكاح، أو الاعتقاد بإباحة محرم معلوم من الدين بالضرورة؛ كالقتل، والزنى، والربا.
- 9- اعتقاد أنّ الرسول ﷺ كتم شيئًا مما أوحى الله تعالى إليه وهو مأمور بتبليغه، أو بلغه لبعض المسلمين دون بعض.

10- تكذيب أي من رسل الله تعالى في أي أمر من الأمور الثابتة عنهم.

الأحاديث الواردة في الكفر من السنة النبوية:

هذه بعض النصوص الحديثية في التكفير والنهي عنه

قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم- :

1 . "بني الإسلام على خصال: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله، والجهاد ماضٍ منذُ بعث رُسله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين... فلا تكفّروهم بذنّبٍ ولا تشهدوا عليهم بشركٍ".

2 «لا تكفّروا أهل ملّتكم وإن عملوا الكبائر»

3. «لا تكفّروا أحداً من أهل القبلة بذنّب وإن عملوا الكبائر».

4 «بني الإسلام على ثلاث:... أهل لا إله إلا الله لا تكفّروهم بذنّب ولا تشهدوا لهم بشرك».

5. عن أبي ذرّ: أنّه سمع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول: «لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أو بالكفر إلا ارتدّت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك».

6. عن ابن عمر: أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «مَن قال لأخيه يا كافر فقد باءَ بما أحدهما».

7. «مَن قذف مؤمناً بكفرٍ فهو كقاتلِهِ، ومن قتل نفسه بشيءٍ عدّبه الله بما قَتَلَ».

8. «مَن كَفَّر أخاه فقد باءَ بما أحدهما».

9. «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فهو كقاتلِهِ، ولعن المؤمن كقاتلِهِ».

10. «أَيُّما رجل مسلمٍ كَفَّر رجلاً مسلماً فإن كان كافراً وإلا كان هو الكافر».

11. «كُفِّوا عن أهل لا إله إلا الله لا تكفّروهم بذنّبٍ فمن أكفر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب».

12. «أَيُّما امرئٍ قال لأخيه يا كافر، فقد باءَ بما أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه.»

13. «ما أكفر رجل رجلاً قطّ إلا باءَ بما أحدهما».

14. «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باءَ به أحدهما إن كان الذي

15- قيل له كافراً فهو كافر، وإلا رجع إلى من قال».

16. «ما شهد رجلٌ على رجلٍ بكفرٍ إلاّ باء بها أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه».

17. عن عليّ: في الرجل يقول للرجل: يا كافر يا خبيث يا فاسق يا حمار قال: «ليس عليه حدّ معلوم، يعزّر الوالي بما رأى»¹.

التحليل والمناقشة:

بِمَا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ التَّكْفِيرَ ظَاهِرَةٌ غَيْرُ شَرْعِيَّةٍ وَعَقِيدَةٌ غَيْرُ طَبِيعِيَّةٍ فِي الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، عَانَتْ وَلَا تَزَالُ تُعَانِي الْأُمَّةَ مِنْ وَبْلَاتِهَا إِلَى الْيَوْمِ، فَقَدْ عَمِلَ عُلَمَاءُ الْعَقِيدَةِ السُّيُوتُونِ الَّذِينَ عَظَمَ عَلَيْهِمْ تَكْفِيرُ الْمُسْلِمِ بِذَنْبِ يَزْتَكِبُهُ حَسْمَهَا عَقْدِيًّا، حَيْثُ قَرَّرُوا فِي شَكْلِ إِجْمَاعِ عَقْدِيٍّ صَرِيحٍ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَكْفِيرُ أَيِّ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذَنْبِ يَزْتَكِبُهُ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ.

لَا يَخْفَى عَلَى الْبَاحِثِ فِي تَارِيخِ الْفِرْقِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنَّ ظَاهِرَةَ التَّكْفِيرِ لَمْ تَكُنْ مُتَدَاوِلَةً فِي الْعُصُورِ الدَّهْبِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا ظَهَرَتْ هَذِهِ الْبِدْعَةُ وَتَأَصَّلَتْ عَلَى يَدِ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ كَانَ التَّكْفِيرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ قَاعِدَةً مُطْرَدَةً، وَالْإِيمَانُ اسْتِثْنَاءً. كَمَا كَانَ التَّطَرُّفُ الدِّينِيُّ مِنَ الْمَعَالِمِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي مَنْظُومَتِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ التَّكْفِيرِيَّةِ، فَقَدْ أَبَاحَ الْخَوَارِجُ قَتْلَ كُلِّ عَاصٍ لِلَّهِ تَعَالَى بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ: أَنَّ الْإِيمَانَ يَزُولُ عَنْ مُرْتَكِبِي الذُّنُوبِ، وَهِيَ الْفِكْرَةُ الَّتِي سَيَرُفُضُهَا عُلَمَاءُ الْعَقِيدَةِ السُّيُوتُونِ الَّذِينَ نَادَوْا بِفِكْرَةِ الْإِيمَانِ الَّذِي لَا يَزُولُ بِذَنْبِ دُونَ الْكُفْرِ، وَاعْتَبَارَ كُلِّ مَنْ أذَنْبَ ذَنْبًا دُونَ الْكُفْرِ مُؤْمِنًا وَإِنْ فَسَقَ بِمَعْصِيَّتِهِ².

شرح الأحاديث وتحليلها واستنباط الحكم والهدايات:

الحديث الأول: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "سبَّابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ. وَقِتَالُهُ كُفْرٌ"³، فَقَدْ اعْتَبَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّ الْمُسْلِمِ وَشْتَمَهُ وَالتَّكْلِمَ فِي عَرِضِهِ بِمَا يُعِيبُهُ ضَرْبًا مِنَ الْفُسُوقِ الَّذِي يَعْنِي الْخُرُوجَ عَنِ الطَّاعَةِ. أَمَّا قِتَالُهُ فَهَوَ مِنَ الْكُفْرِ. وَلَمَّا كَانَ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ حَرِيصِينَ كُلَّ الْحَرِصِ عَلَى عَدَمِ تَكْفِيرِ حَتَّى الْمُكْفَّرِ فَإِنَّهُمْ حَمَلُوا هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى الْمَقَاتِلِ الْمُسْتَحِلِّ لِلْقَتْلِ.

وَيُسْتَنْتَجُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الْأَحْكَامُ الْآتِيَّةُ:

1 - هذه الأحاديث مبثوثة في جامع الأصول ج 1، و 10 و 11 كما أنّها مجموعة بأسرها في كنز العمال للمتقي الهندي ج 1.

2 - الفرق بين الفرق للإمام البغدادي، الصفحة: 343.

3 - صحيح مسلم، كتاب الإيمان حديث رقم 116، 46/1.

الحُكْمُ الْأَوَّلُ: أَنَّ سَبَّ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقِّ حَرَامٌ بِاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ، وَفَاعِلُ ذَلِكَ فَاسِقٌ.

الحُكْمُ الثَّانِي: أَنَّ قِتَالَ الْمُسْلِمِ عَلَى وَجْهِ الاسْتِحْلَالِ كُفْرٌ.

الحُكْمُ الثَّلَاثُ: أَنَّ تَكْفِيرَ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقِّ يُوْوَلُّ إِلَى كُفْرِ الْمُكْفِرِ¹

الحديث الثاني: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع: "وَيُحْكَمُ (أَوْ قَالَ وَيُلْكَمُ) لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفْرًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"².

فَهَذَا الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ يُجْرِمُ التَّكْفِيرَ صَرَاحًا، لِمَا يَتَرْتَبُ عَنْهُ مِنَ اسْتِحَالَةِ الْقَتْلِ اسْتِنَادًا إِلَى عَقِيدَةِ التَّكْفِيرِ ذَاتَهَا³.

الحديث الثالث: عن نافع عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا"⁴.

وفي رواية أخرى: "إِنَّمَا أَمْرِي قَالٍ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا. إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ. وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ"⁵. وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُفَرِّرِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْعَقِيدَةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَكْفِيرُ الْمُسْلِمِ بِالْمَعَاصِي، كَبِيرَةً كَانَتْ أَوْ صَغِيرَةً، فَهَذَا الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ جَاءَ لِيُؤَكِّدَ هَذَا الْمَبْدَأَ الْعَقْدِيَّ الْعَامَّ، فَإِنَّ وَصْفَ الْمُسْلِمِ بِالْكَفْرِ فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ لَا يَجُوزُ شَرْعًا فَإِنَّ إِثْمَ التَّكْفِيرِ إِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى الْمُكْفَرِ نَفْسِهِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "بَاءَ بِهَا" أَي رَجَعَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ، أَي الْإِثْمُ.

وَهَذَا الرَّجُوعُ إِنَّمَا يَكُونُ بِحَسَبِ نِيَّةِ الْمُكْفِرِ، فَإِنْ كَانَ مُسْتَحِلًّا لِذَلِكَ فَالْكَفْرُ يَرْجِعُ عَلَيْهِ حَقِيقَةً. وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ التَّنْقِيصَ مِنْ أَحِيهِ الْمُسْلِمِ رَجَعَتْ عَلَيْهِ نَقِيسَتُهُ وَمَعْصِيَّتُهُ تَكْفِيرُهُ⁶.

مِنَ الْقَضَايَا الْمُسَلَّمَةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْعَقِيدَةِ السُّنَنِيِّينَ الَّذِينَ اتَّصَلَ سَنَدُ التَّعْلِيمِ لَدَيْهِمْ أَهْمٌ لَا يُكْفَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ يُوجِبُ التَّبَرُّؤَ وَالتَّكْفِيرَ⁷ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ السَّمْحَةَ تُجْرِمُ فِعْلَ التَّكْفِيرِ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ السَّابِقَةِ.

1- صحيح مسلم بشرح النووي 46/2.

2 - صحيح مسلم، كتاب الإيمان حديث رقم 120. ص: 107 .

3 - صحيح مسلم بشرح النووي، 47/2.

4 - صحيح مسلم، كتاب الإيمان حديث رقم 111.

5 - صحيح مسلم، كتاب الإيمان حديث رقم 111.

6 - صحيح مسلم بشرح النووي، 42/2.

7 - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة لأبي المظفر الإسفراييني، ص: 186.

لَقَدْ عَظَّمَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ إِطْلَاقَ لَفْظِ الْكُفْرِ عَلَى الْمُسْلِمِ، لِاقْتِنَاعِهِ مُ الشَّدِيدِ بِجُرْمَةِ ذَلِكَ شَرْعاً، وَلَمَّا يَتَرْتَّبُ عَنْ هَذَا الْوَصْفِ الْقَبِيحِ مِنْ نَتَائِجٍ وَأَحْكَامٍ فَهْمِيَّةٍ خَطِيرَةٍ، قَدْ مَتَمَّتْ إِلَى حَيَاةِ الشَّخْصِ الْمُكْفَّرِ وَمَالِهِ وَعَرْضِهِ.

وَجَدِيرٌ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْإِمَامَ الْأَشْعَرِيَّ الْمَتَوَفَّى سَنَةَ 324 هَجْرِيَّةً بِوَصْفِهِ رَائِداً رُوحِيًّا لِأَعْلَبِ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ رَفَضَ عَقِيدَةَ التَّكْفِيرِ بِشِدَّةٍ، حَتَّى إِنَّ آخِرَ كَلِمَةٍ مَاتَ عَلَيْهَا هَذَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ هِيَ قَوْلُهُ لِأَحَدِ جُلَسَائِهِ وَهُوَ يَخْتَضِرُ: " اشْهَدْ عَلَيَّ أَيُّ لَا أُكْفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقِبْلَةِ، لِأَنَّ الْكُلَّ يُشِيرُونَ إِلَى مَعْبُودٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّمَا هَذَا كُلُّهُ اخْتِلَافُ الْعِبَارَاتِ"¹.

كَمَا قَرَّرَ الْإِمَامُ الْأَشْعَرِيُّ مِنْ قَبْلُ أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصَدِيقُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا الْمَعْنَى أَفَادَهُ التَّدَاوُلُ اللَّغَوِيُّ الَّذِي يَأْخُذُ عِنْدَ الْإِمَامِ الْأَشْعَرِيِّ مَدْلُولُهُ مِنْ إِجْمَاعِ أَهْلِ اللَّغَةِ. وَيَسْتَشْهَدُ فِي هَذَا السِّيَاقِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: " وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ" يوسف: 17، لِلتَّذْلِيلِ عَلَى أَنَّ لَفْظَ "الْإِيمَانِ" يُفِيدُ التَّصَدِيقَ. وَمِنْ وَرَاءِ هَذَا التَّحْدِيدِ اللَّغَوِيِّ لِلْإِيمَانِ مَقَاصِدُ عَقْدِيَّةٍ شَرِيفَةٍ، تَتَمَثَّلُ بِالْأَسَاسِ فِي اعْتِبَارِ الْفَاسِقِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مُؤْمِنًا بِإِيمَانِهِ، فَاسِقًا بِفِسْقِهِ وَكَبِيرَةً، مُخَالَفَةً لِلتِّيَّارِ الْعَتَرَالِيِّ الَّذِي جَعَلَهُ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَضِدًّا عَلَى التِّيَّارِ الْحَارِجِ الَّذِي قَضَى بِتَكْفِيرِهِ.

وَفِي هَذَا الصَّدَدِ يَقُولُ الْإِمَامُ الْأَشْعَرِيُّ: "فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَحَدِّثُونَا عَنِ الْفَاسِقِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ أَمْؤْمِنٌ هُوَ؟ قِيلَ لَهُ: نَعَمْ، مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ، فَاسِقٌ بِفِسْقِهِ وَكَبِيرَتِهِ. وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ اللَّغَةِ أَنَّ مَنْ كَانَ مِنْهُ ضَرْبٌ فَهُوَ ضَارِبٌ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُ قَتْلٌ فَهُوَ قَاتِلٌ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُ كُفْرٌ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُ فِسْقٌ فَهُوَ فَاسِقٌ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُ تَصَدِيقٌ فَهُوَ مُصَدِّقٌ، وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ فِيهِ إِيمَانٌ فَهُوَ مُؤْمِنٌ..."².

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا التَّحْدِيدِ اللَّغَوِيِّ وَالْعَقْدِيِّ أَمْرَانِ:

الأوَّلُ: أَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ بِكَافِرٍ كَمَا يَقُولُ الْحَوَارِجُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ كَمَا يَقُولُ الْمُعْتَرِلَةُ، إِذْ " لَوْ كَانَ الْفَاسِقُ لَا مُؤْمِنًا وَلَا كَافِرًا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ كُفْرٌ وَلَا إِيمَانٌ، وَلَكَانَ لَا مُوَحِّدًا وَلَا مُلْحِدًا وَلَا وَلِيًّا وَلَا عَدُوًّا، فَلَمَّا اسْتَحَالَ ذَلِكَ اسْتَحَالَ أَنْ يَكُونَ الْفَاسِقُ لَا مُؤْمِنًا وَلَا كَافِرًا كَمَا قَالَتِ الْمُعْتَرِلَةُ"³.

1 - تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، ص: 149.

2 - اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع للإمام الأشعري، ص: 154.

3 - المصدر السابق، ص: 154.

وَهَذَا الْمَبْدَأُ الْعَقْدِيُّ الرَّاسِخُ سَيَتَحَوَّلُ عِنْدَ الْإِمَامِ الْأَشْعَرِيِّ إِلَى أَصْلِ مِنْ أُصُولِ عَقَائِدِ السَّلَفِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا فَيَقَرَّرُ بِأَنَّ "السَّلَفَ مُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَسَائِرِ مَا ادَّعَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ لَا يُجْرِبُهُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَعَاصِي، وَلَا يُجْبِطُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الْكُفْرُ، وَأَنَّ الْعُصَاةَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مَأْمُورُونَ بِسَائِرِ الشَّرَائِعِ، غَيْرِ خَارِجِينَ عَنِ الْإِيمَانِ بِمَعَاصِيهِمْ"¹.

وَعُمُومًا فَإِنَّ الْخِطَابَ الْأَشْعَرِيَّ الْمَعْرَبَ عَنْ رُوحِ الْوَسْطِيَّةِ وَالْإِعْتِدَالِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنْ رُوحِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السَّمْحَةِ يَتَعَبَّرُ قَضِيَّةً تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أخطرِ الْقَضَايَا، وَقَدْ عَظُمَ عَلَى أئِمَّةِ الْعَقِيدَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ تَكْفِيرُ صَاحِبِ الْكِبْرِيَّةِ غَيْرِ الْمُسْتَحَلِّ لَهَا.

وَعِنْدَمَا يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ بِقَضَايَا اجْتِهَادِيَّةٍ فَإِنَّ بَعْضَ أئِمَّةِ الْعَقِيدَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ يُظْهِرُونَ تَسَاهُحًا لَا نَظِيرَ لَهُ، حَيْثُ لَمْ يُكْفَرُوا مِنْ اجْتِهَادِهِ فِي تَقْرِيْبِ بَعْضِ قَضَايَا الْإِعْتِقَادِ كِنِكَارِ رُؤْيَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْأَفْعَالِ وَمَسْأَلَةِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَخَلْقِ الْقُرْآنِ وَبَقَاءِ الْأَعْرَاضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ دَقَائِقِ عِلْمِ الْكَلَامِ، فَالْأَوْلَى كَمَا يُقَرِّرُ عُلَمَاءُ الْعَقِيدَةِ السُّنِّيَّةِ عَدَمُ التَّكْفِيرِ، لِكَوْنِ أَصْحَابِهَا مِنَ الْمُتَأَوَّلِينَ، وَالتَّأْوِيلُ إِنَّمَا هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْاجْتِهَادِ فِي فَهْمِ النَّصِّ، وَهُوَ عَمَلٌ يُثَابُ عَلَيْهِ الْمُجْتَهِدُ، سِوَاهُ أَخْطَأَ أَمْ أَصَابَ².

وَقَدْ اعْتَبَرَ عُلَمَاءُ الْعَقِيدَةِ السُّنِّيَّةِ قَضِيَّةَ التَّكْفِيرِ قَضِيَّةً شَرْعِيَّةً، وَهِيَ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا إِبَاحَةُ الدَّمِ وَالْحُكْمُ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ، وَالسَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ الشَّرْعُ الْحَكِيمُ نَفْسُهُ، إِمَّا بِنَصِّ أَوْ قِيَاسٍ عَلَى مَنْصُوصٍ. وَجَدِيدٌ بِالذِّكْرِ أَنَّ إِمَامَ الْحَرَمَيْنِ عَبْدَ الْمَلِكِ الْجَوْنِيَّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 487 هِجْرِيَّةً وَهُوَ يَكْتُبُ أَعْظَمَ كِتَابٍ فِي السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، فِي وَفْتٍ اشْتَدَّتْ فِيهِ الْحَاجَةُ إِلَى الْعُلَمَاءِ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ يُرْشِدُونَ الْأُمَّةَ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحُهَا مَعَاشًا وَمَعَادًا، قَدْ وَفَّ حَائِرًا أَمَامَ مَا يَفْتَضِي التَّكْفِيرَ وَالتَّبْدِيعَ. حَيْثُ يَقُولُ:

فَإِنْ قِيلَ: فَصَلُّوا مَا يَفْتَضِي التَّكْفِيرَ وَمَا يُوجِبُ التَّبْدِيعَ وَالتَّضْلِيلَ.

قُلْنَا: هَذَا طَمَعٌ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ، فَإِنَّ هَذَا بَعِيدُ الْمَدْرَكِ، وَمُتَوَعِّزُ الْمَسْئَلِ، يَسْتَمِدُّ مِنْ تَيَّارِ بَحَارِ عُلُومِ التَّوْحِيدِ، وَمَنْ لَمْ يُحِطْ بِنَهَايَاتِ الْحَقَائِقِ لَمْ يَتَحَصَّلْ فِي التَّكْفِيرِ عَلَى وَثَائِقِ³.

1 - رسالة إلى أهل النغر للإمام أبي الحسن الأشعري الصفحة: 274.

2 - شرح النفراوي لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، 1/111.

3 - غيات الأمم في النبات الظلم، للإمام الجويني، الصفحة 200 تحقيق د. أحمد السايح، مكتبة الثقافة الدينية الطبعة الأولى 2011م.

لَقَدْ أَدْرَكَ عُلَمَاءُ الْعَقِيدَةِ السَّنِيُونَ أَنَّ قَضِيَةَ التَّكْفِيرِ قَضِيَةٌ شَرَعِيَّةٌ لَا دَخَلَ لِلْعَقْلِ فِي إِقْرَارِهَا، كَمَا أَنَّ إِثْبَاتَهَا فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ وَالْعُسْرِ بِالنَّظَرِ إِلَى الشُّرُوطِ الْمُرْتَبِطَةِ بِهَا، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الشُّرُوطُ الْعِلْمِيَّةُ لِتَأْوِيلِ النَّصِّ الشَّرْعِيِّ، الْمُمْتَلِئَةِ فِي الْآتِي:

- النَّظَرُ فِي بِنِيَةِ النَّصِّ الشَّرْعِيِّ، هَلْ يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ أَمْ لَا، فَإِنْ اِحْتَمَلَ التَّأْوِيلَ فَهَلْ هُوَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ؟ وَمَعْرِفَةُ مَا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ وَمَا لَا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ لَيْسَ بِالْمُهَيَّنِّ، بَلْ لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ إِلَّا الْمَاهِرُ الْحَادِثُ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ، الْعَارِفُ بِأَصُولِهَا، ثُمَّ بَعَادَةُ الْعَرَبِ فِي الِاسْتِعْمَالِ، فِي اسْتِعَارَاتِهَا وَتَجَوُّزَاتِهَا وَمَنَاهِجِهَا فِي ضُرُوبِ الْأَمْثَالِ.

- النَّظَرُ فِي بِنِيَةِ النَّصِّ الشَّرْعِيِّ هَلْ ثَبَتَ عَنْ طَرِيقِ التَّوَاتُرِ أَوْ الْآخَادِ أَوْ الْإِجْمَاعِ.

- الْبَحْثُ فِي شُرُوطِ التَّوَاتُرِ، هَلْ تَمَّ ذَلِكَ عَلَى شَرْطِ التَّوَاتُرِ أَمْ لَا؟

- الْإِجْمَاعُ، وَهُوَ مِنْ أَعْمَاضِ الْأَشْيَاءِ " إِذْ شَرْطُهُ أَنْ يَجْتَمِعَ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيَتَّفِقُوا عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ اتِّفَاقًا بِلَفْظٍ صَرِيحٍ، ثُمَّ يَسْتَمِرُّوا عَلَيْهِ عِنْدَ قَوْمٍ وَإِلَى تَمَامِ انْقِرَاضِ الْعَصْرِ عِنْدَ قَوْمٍ... ثُمَّ النَّظَرُ فِي أَنَّ مَنْ خَالَفَ بَعْدَهُ هَلْ يُكْفَرُ؟ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: إِذَا جَازَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنْ يَخْتَلِفُوا جَازًا، فَيُحْتَمَلُ تَوَافُقُهُمْ عَلَى اتِّفَاقٍ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَرْجِعَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا غَامِضٌ أَيْضًا"¹.

- النَّظَرُ فِي صَاحِبِ الْمَقَالِ هَلْ تَوَاتَرَ عِنْدَهُ الْخَبْرُ، أَوْ هَلْ بَلَغَهُ الْإِجْمَاعُ... فَإِذَا مَنْ خَالَفَ الْإِجْمَاعَ وَلَمْ يَنْبُتْ عِنْدَهُ بَعْدُ فَهُوَ جَاهِلٌ مُخْطِئٌ وَلَيْسَ بِمُكَدِّبٍ فَلَا يُمَكِّنُ تَكْفِيرُهُ.

- النَّظَرُ فِي الدَّلِيلِ الَّذِي تَجَاوَزَ بِهِ صَاحِبُ الْمَقَالَةِ ظَاهِرَ النَّصِّ، هَلْ هُوَ عَلَى شَرَايِطِ الْبُرْهَانِ أَمْ لَا، لِكَوْنِ الْبُرْهَانِ إِذَا كَانَ وَافِيًا بِشُرُوطِهِ رُخَّصَ فِي التَّأْوِيلِ.

- النَّظَرُ فِي مَضْمُونِ الْمَقَالَةِ هَلْ هِيَ مِمَّا يَعْظُمُ ضَرَرُهَا فِي الدِّينِ أَمْ لَا، فَإِنَّ مَا لَا يَعْظُمُ ضَرَرُهُ فِي الدِّينِ فَلَا أَمْرٌ فِيهِ أَسْهَلُ، وَإِنْ كَانَ الْقَوْلُ شَنِيعًا وَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ"².

وَقَدْ وَضَعَ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 505 هِجْرِيَّةً قَاعِدَةً جَلِيلَةً فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْحَاطِرِ فَقَالَ: " وَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَمِيلَ الْمَحْصُلُ إِلَيْهِ الْاِحْتِرَازُ مِنَ التَّكْفِيرِ مَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، فَإِنَّ اسْتِبَاحَةَ الدَّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ مِنَ الْمَصْلُوبِينَ لِلْقَبْلَةِ، الْمَصْرُوحِينَ بِقَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، حَطًّا، وَالْحَطُّ فِي تَرْكِ أَلْفِ كَافِرٍ فِي الْحَيَاةِ أَهْوَنُ مِنَ الْحَطِّ فِي سَفْكِ مَحْجَمَةٍ مِنْ دَمِ مُسْلِمٍ".

1 - الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي، الصفحة: 157.

2 - المصدر السابق، ص: 157.

مِثْلَمَا وَضَعَ الْإِمَامُ الْعَزَالِي قَاعِدَةً أُخْرَى مُسْتَلْهِمَةً مِنْ رُوحِ الشَّرْعِ الْحَكِيمِ فَقَالَ: "إِنَّ الْخَطَأَ فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ
أَسْلَمَ مِنَ الصَّوَابِ فِي الظَّنِّ فِيهِ. فَلَوْ سَكَتَ إِنْسَانٌ مَثَلًا عَنْ لَعْنِ إِبْلِيسَ أَوْ لَعْنِ أَبِي جَهْلٍ أَوْ أَبِي هَبٍ أَوْ مَا
شِئْتَ مِنَ الْأَشْرَارِ طَوَّلَ عُمْرِهِ لَمْ يَضُرَّهُ السُّكُوتُ. وَلَوْ هَفَا هَفْوَةً بِالظَّنِّ فِي مُسْلِمٍ بِمَا هُوَ بَرِيٌّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ
فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ"¹.

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنَّ قَضِيَةَ التَّكْفِيرِ فِي الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ تُعَدُّ مِنَ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَقَدْ أَحَاطَتْهَا الشَّرِيعَةُ
الْإِسْلَامِيَّةُ السَّمْحَةُ بِجُمْلَةٍ مِنَ الشُّرُوطِ وَالصَّوَابِ فِي غَايَةِ الصَّرَاقَةِ، سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ، وَحِفْظًا لِلدِّمَاءِ:

ثبت المصادر والمراجع:

1. لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2003م/1424هـ، ج6، ص: 134 .
2. معجم تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: د. رياض قاسم، دار المعرفة، الطبعة: 1، سنة: (1422هـ/2001م)، بيروت، لبنان. المجلد الثالث، ص: 2787.
3. تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة 4، 1426هـ/2005م، بيروت لبنان، الجزء: 2، ص: 589.
4. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، (1376 هـ/ 1957م)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ج1، ص: 147.
5. كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي الفاروقى النهانوي، تحقيق: لطفى عبد البديع، المؤسسة المصرية، العامة، مكتبة النهضة العربية، الطبعة: 1، 1382هـ/1963م، ص: 33.
6. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، (دون تاريخ)، بيروت. ص: 526.
7. مقدمة في التفسير الموضوعي، محمد بن عبدالعزيز الخضيري، كلية المعلمين قسم الدراسات القرآنية، ص: 20.
8. التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، محمد يوسف القاسم، الطبعة الأولى، سنة: 1401هـ/1981م، القاهرة، القسم الأول.
9. التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً، أحمد رحمانى، منشورات جامعة باتنة، ص: 42.
10. مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، ط2، 1997م/1418هـ، دمشق، ص: 24.

1 - المصدر نفسه: 120.

11. دراسات في التفسير وأصوله، محي الدين بلتاجي، دار الثقافة، الطبعة: 1 ص: 193 سنة: 1987م، بيروت.
12. مقال للأستاذ: محمد بن عبدالعزيز الخضيري، كلية المعلمين، قسم الدراسات القرآنية، بتاريخ: 2002/02/05م.
13. الحجة في القراءات السبع، للإمام ابن خالويه، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط2، 1397هـ/1977م، بيروت. ص: 124.
14. قواعد التدبر الأمثل، حبكة الميداني، الطبعة الثالثة، دار القلم، سنة: 2004م.
15. "لسان العرب"؛ لابن منظور، مادة: حدّث 796/2، "لسان العرب"؛ لابن منظور 711هـ، تولى تحقيق "لسان العرب" نُحبة من العاملين بدار المعارف، هم الأساتذة: عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مصر، د.تخ.
16. "معجم الكلبيات"؛ لأبي البقاء الكفوي، ص 370. "معجم الكلبيات" لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي 1094هـ، قابله على نسخة خطيّة، وأعدّه للطبع ووضع فهرسه: د. عدنان درويش ومحمد المصري. مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2: 1419هـ/1998م.
17. فتح الباري بشرح صحيح البخاري" 261/1. فتح الباري بشرح صحيح البخاري؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني 852 هـ، طبعة مُصحّحة على عدة نُسخ، وعن النسخة التي حَقَّق أصولها وأجازها: الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز. دار الفكر - بيروت: 1414هـ/1993م.
18. "زهة النظر في توضيح نُحبة الفكر"؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني ص 35. زهة النظر في توضيح نُحبة الفكر في مصطلح أهل الأثر"؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني 852 هـ، تحقيق وتعليق: د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، ط1: 1422هـ/2001م.
19. أ.د. عبدالرحمن البر: معنى الحديث الموضوعي وفوائده دراسية؛ موقع البصيرة: الموقع الشخصي للأستاذ الدكتور عبدالرحمن البر.
20. <http://www.alabaserah.com/news.php?newsid=274>
21. "المعجم الوسيط" مادة وضع، ص (1040). المعجم الوسيط «جمهورية مصر العربية: مجمع اللغة العربية: الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث. ط4: 1425هـ/2004م. مكتبة الشروق الدولية.
22. يُنظر للتفصيل في هذه المناهج: "الحديث الموضوعي دراسة نظرية"؛ رمضان إسحاق الزّيان، مجلة الجامعة الإسلامية.
23. أ.د. عبدالرحمن البر: معنى الحديث الموضوعي وفوائده دراسية؛ موقع البصيرة: الموقع الشخصي للأستاذ الدكتور عبدالرحمن البر.
24. <http://www.alabaserah.com/news.php?newsid=274..>
25. ينظر كتاب: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق، لرقية العلواني: صفحة: (19).
26. لسان العرب للمؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، ابن منظور الأنصاري، الرويفعي، الإفريقي.
27. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية؛ للمؤلف: أبو نصر، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي.
28. باختصار من كتاب الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للمؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي.
29. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز؛ للمؤلف: مجد الدين، أبو طاهر، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي
30. من كتاب التعريفات للمؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، (المتوفى: 816 هـ)، بإيجاز بسيط.
31. الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف الدكتور محمود حمدي زقزوق.
32. التحرير والتنوير، "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"؛ المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (المتوفى: 1393 هـ).
33. في ظلال القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، (المتوفى: 1385هـ).
34. د. إبراهيم طرابية/ <http://quran-m.com/quran/article/2646> من -أعظم- آيات-الله-في-الكون-الجلال.
35. مجلة الصيد والطبيعة، العدد 72.
36. جامع البيان عن تأويل أي القرآن، لابن جرير الطبري، 143/13، 144، دار الفكر. ط: 1405هـ، 1984م.

37. التفسير الكبير، لإمام فخر الدين الرازي، 55/12، دار الكتب العلمية. ط: الثانية 1425هـ، 2004م.
38. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لإمام أبي البركات النسفي، 367/2، دار الفكر للطباعة والنشر.
39. معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: 510هـ)، المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1417 هـ - 1997م (ج 7 - ص 375).
40. مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ، (ج 10 - ص 151).
41. ثبوت النبوات عقلا ونقلا ص 573.... شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د. محمد يسري سلامة دار ابن الجوزي
42. قال ابن كثير في تفسيره: (138/8): عند قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: 11]، قال علقمة: (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم)، وانظر: تفسير الطبري (421/23).
43. فتح الباري، لابن حجر (287/11)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي (538-534/3)؛ حيث نقل الإجماع على ذلك عن جمع غفير من السلف، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (449.452، 459/8).
44. تذكرة المؤتسى، شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي (1/236).
45. منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (254/3)، وشفاء العليل، لابن القيم (ص53)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (308/8)، وهي من قول عمر بن الخطاب قبل الإمام أحمد؛ كما ذكره ابن بطة في الإبانة برقم (1562).
46. تذكرة المؤتسى شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي (1/236).
47. شرح ثلاثة الأصول، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر الطبعة: الرابعة 1424هـ - 2004م، الجزء: 1 الصفحة: 39.
48. مذكرة التوحيد المؤلف: عبد الرزاق عفيفي (المتوفى: 1415هـ) الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1420هـ الجزء: 1 الصفحة: 3.
49. الإتيقان في علوم القرآن. السيوطي. ت 911 هـ. الطبعة الثالثة. شركة مَكْتَبَةُ مصطفى البيبي الحلبي وأولاده. مصر. 1951 م: 52/1
50. المصاحف. أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني. ت 316 هـ. نشره: د. آرثر جفري. مطبعة الرحمانية. مصر. 1936 م: ص 182 - 183.
51. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. مجد اليدن محمد بن يعقوب الفيروزآبادي المتوفى سنة 817 هـ. تحقيق: محمد علي النجار مطابع شركة الإعلانات الشرقية. القاهرة. 1383هـ. 1963 م: 353/1.
52. إلى القرآن الكريم. محمود شلتوت. دار الهلال. (د. ت): ص111.
53. محاسن التأويل. المسمى (تفسير القاسمي). تأليف محمد جمال الدين القاسمي. ت 1914م. تصحيح وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة عيسى الباي الحلبي وشركاؤه. 1995 م: 4695/13.
54. مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير. جمع وتخريج أحمد أحمد البزرا، و محمد بن برزق بن الطرهوني، و حكمت بشر ياسين. الطبعة الأولى. مكتبة المؤيد. السعودية. 1414 هـ. 1994 م، 3/329.
55. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الحفية. للعلامة الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي المشهور بالجمال. المتوفى سنة 1204 هـ. مطبعة الاستقامة. القاهرة. (د. ت): 3/333.

56. القرآن والكتاب. الأب الحداد. الطبعة الثانية. (د. ن.). بيروت، لبنان. 1986 م: 135-137.
57. البيان والتبيين. أبي عثمان عمرو بن بحر. ت 255 هـ. تحقيق: الخامي فوزي عطوي. دار صعب. بيروت. ط1. 1968 م: 1/20.
58. كتاب الصناعيتين: النظم والشعر، العسكري، أبو هلال الحسن ابن عبد الله بن سهل ت 395 هـ، تحقيق: محمد علي البجاوي ورفيقه، الطبعة الأولى، مطبعة الأستانة، 1952 م: ص 149.
59. نقد الشعر. أسامة بن منقذ. تحقيق: محمد زغلول سلام. الطبعة الثانية. بيروت، لبنان. مصورة عن طبعة مصر. 1975 م: ص 29.
60. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصللي أبو الفتح. ت 637 هـ. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت. ط1. 1995 م: 2/104.
61. الإعجاز القرآن. محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاي أبو بكر. ت 403 هـ. تحقيق: السيد أحمد صقر. دار المعارف. القاهرة. (د. ت): ص 196.
62. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. الإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي. ت 885 هـ. خرج الآيات وأحدثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي. الطبعة الأولى دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. 1995 م: 1/126.
63. تناسق الدرر في تناسب السور. جلال الدين السيوطي. ت 911 هـ. ط2. تحقيق: عبد الله محمد الدرويش. دار عالم الكتب. بيروت. لبنان. 1408 هـ - 1987 م: 1/216.
64. مسند الإمام أحمد بن حنبل [المتوفى: 241هـ]، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2001 م. 10: 133 - 134.
65. مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي [المتوفى: 748هـ]، حققه واختصره محمد ناصر الدين الألباني، الناشر المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية 1412هـ-1991م. ص 95، رقم: 29.